المقدمة

يتناول هذا البحث دراسة لأوضاع مصر وبلاد الشام في العصر المملوكي من خلال كتابات الرحالة الأوروبيين، وقد اخترت دراسة مصر والشام معا نظرا لأنهما تمثلان وحدة جغرافية وتاريخية واحدة و متكاملة، حيث أن بلاد الشام مرتبطة ارتباطا وثيقا بمصر من الناحية السياسية والاستراتيجية والدينية، كما أن هناك العديد من الرحالة العرب والأجانب بدءوا رحلتهم من مدينة الإسكندرية وزيارة الأماكن المقدسة، ثم المرور بالمدن المصرية الأخرى والعودة عن طريق يافا وبيت المقدس إلى جزيرتي قبرص ورودس أو العكس، ثم الرحيل إلى بلادهم.

وترجع أهمية هذا البحث في تقديري إلى ما كتبه الرحالة المسافرون عند زيارتهم لمصر وبلاد الشام، فالرحالة تعد نوعا من الحركة والتنقل، وهي كذلك تقيم اختلاطا قويا بالناس، ولذلك فإنها عين مبصرة ووجهة نظر مختلفة عن أهل البلد الوطنيين، وهنا تبرز قيمة الرحالة حيث يتمكن من رؤية واضحة وعميقة لبعض الأحداث وللوصف الجغرافي للبلاد مثل التضاريس والمناخ والنبات الطبيعى والظواهر البيئية والسكانية المختلفة ومدى تأثيرها، ويستنتج بعض الأمور ويكشف النقاب عن أشياء وأحداث لم نكن لنعرفها إلا عن طريق كتابات هؤلاء الرحالة، حيث لاحظوا ودرسوا أحوال البلاد التي مروا بها في حالة الازدهار، أو في حالة الانهيار والتدهور، وقد ترك لنا الرحالة مؤلفات قيمة تسرد ظروف البلاد وشعبها في شتي نواحي الحياة مسجلين أدق الملاحظات والتفاصيل التي قد تبدو للمؤرخين من أبناء البلد شيئاً مألوفاً فلم تلفت نظرهم، وخلفوا لنا سجلات حافلة بوصف المدن التي زاروها وأحوالها واهتموا بصفة خاصة بأخبار إخوانهم من الغربيين من تجار وحجاج، وكذلك أحوال الوطنيين كما اهتموا بوصف المدن المصرية والشامية وثغورهما والطرق المؤدية لكل مدينة، بالإضافة الي ذكر أهم محطات رحلة الحج التي انحصرت بين يافا فبيت المقدس ثم سيناء بمصر ولذا فإنهم تركوا لنا معلومات هامة وذات قيمة عن كل بقعة شاهدوها.

كما تناول البحث فترة الحكم المملوكي (٦٤٨ – ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠- ١٥١٧م) أي حوالي قرنين ونصف القرن من الزمان، حيث لعبت الدولة المملوكية دورا عظيما فى النهوض بأعباء البلاد واستطاعت حماية العالم الإسلامى والمنطقة العربية من أخطار متعددة، ولذا فقد تمتعت تلك الدولة بنشاط خارجى على نطاق واسع مع الدول الإسلامية ومع الدول الأجنبية على حد سواء، حيث هدأت العلاقات بين الشرق والغرب نسبياً، وخفت حدة الصراع الإسلامي الصليبي، مما ساعد علي تطور ونمو العلاقات بينهما فساعد ذلك على سفر وتجول الأوربيين إلى بلاد الشرق، وفي تلك الفترة الطويلة استطاعوا خلالها رصد مراحل الازدهار والانهيار في الدولة المملوكية.

فضلاً عن أن لكل رحالة كتاباته الخاصة وآراءه المختلفة عن غيره وذلك نظرًا لاختلاف جنسياتهم وأهدافهم، فأدي ذلك إلى اختلاف وتنوع اهتماماتهم وفقاً للبيئة التي نشئوا فيها ولظروفهم السياسية والاقتصادية والدينية فكان منهم الإيطالي والإسباني والألماني و الفرنسي، و منهم من اهتم بالجانب السياسي وأنظمة الدولة والوضع العسكري في البلاد الإسلامية، ومنهم من اهتم بالجانب التجاري فشمل وصف الموانئ والثغور ومدي حجم التجارة في هذه الموانئ وأهم الصناعات والحرف التي عمل بها أهل البلد، وكذلك اهتمام الكثيرون من الرحالة الأوروبيين بشراء السلع والمنتجات من أجل بيعها في أوطانهم لتحقيق بعض الربح المادي وخاصة إذا علمنا أن العديد من الأسواق التجارية في الشرق كانت متمثلة في أسواق مصر والشام والتي ترد إليهما المنتجات الشرقية كلها وتوزع فيما بعد إلى أوربا، وهناك الرغبة الملحة في كشف سحر الشرق ومشاهدة معالمه التي قرءوا عنها في الكتاب المقدس، أو فى رحلات السابقين فأرادوا تحقيق الحلم وذلك بالرحلة والسفر إلى مصر والشام.

ومنهم المسيحيون وهم قد اهتموا بأحوال المسيحيين في مصر والشام ومعاملة الدولة المملوكية لهم وزيارة الأماكن المقدسة ووصف الكنائس المسيحية القديمة ومدي أهميتها وقدسيتها للمسيحيين الوطنيين والأجانب وكذلك الضريح المقدس وبيت لحم وكنيسة القيامة والأماكن التي ارتبطت بسيرة السيد المسيح ؛، أما الرحالة اليهود، فقد

كان اهتمامهم منصباً علي أعداد اليهود في البلاد الإسلامية وأعمالهم ونشاطهم الاقتصادي ووضعهم في المنطقة وعلاقتهم بالمسلمين والمسيحيين والسلطات المملوكية وذكر ديارات اليهود ومعابدهم.

أما بالنسبة للمنهج المتبع في هذة الدراسة فهو المنهج الوصفي والذي اعتمدت عليه في وصف المدن والثغور والشوارع والأماكن الدينية التى زارها الرحالة، كما استخدمت المنهج النقدي لتوضيح صحة أو خطأ المادة العلمية التى أوردها الرحالة وقارنتها بالمصادر الاسلامية المعاصرة، وكذلك المنهج التحليلى.

ومن أهم الصعوبات في البحث، هى أن هذا الموضوع متسع من الناحية الزمنية والجغرافية، فهو يمتد لفترة زمنية طويلة من منتصف القرن الثالث عشر الميلادي حتى أوائل القرن السادس عشر الميلادى، ومن الناحية الجغرافية فإن هؤلاء الرحالة الأجانب جاءوا من أصول متباينة وتجولوا في المدن المصرية والشامية فكانت المشاهدات كثيرة ومتشعبة ومتنوعة، فضلا عن ذلك فإن المادة العلمية متناثرة وفى بعض الجوانب نجدها قليلة نسبيًا وفي جوانب أخري متوفرة بصورة واضحة، وثمة صعوبة أخري تمثلت في اعتماد بعض الرحالة علي نقل ما جاء في الرحلات السابقة دون فحص أو التأكد من صحتها ويكاد يكون نقلاً حرفيًا.

وكذلك جهل بعض الرحالة بالنواحى الدينية وضعف المستوى الفكرى والعلمى والثقافى وجهلهم بكثير من المعتقدات والاوضاع الاسلامية كان من صعوبات البحث عند تفسير مشاهداتهم وتحليلاتهم، ثم صعوبة أخرى تمثلت فى عدم تحديد المقاييس والموازين التى ذكرها الرحالة وعدم معرفتهم العلمية بها ومن ناحية أخرى نجدها غير متوافقة مع المقاييس والموازين فى العصر المملوكى بالاضافة إلى اختلاف تلك المقاييس والموازين عن بعضها فى جهات مصر والشام فى العصور الوسطى حيث كان كل إقليم يتعامل بما تعارف عليه ولم تتفق مع بعضها البعض فى البلاد وكذلك مع ما هو متعارف عليه فى أوربا وبالتالى لا يوجد ترابط بينهم، وسوف أحاول في هذه الدراسة عرض أفكار وأراء هؤلاء الرحالة ثم نقدها مقارنة بالمصادر الإسلامية المعاصرة لإثبات صدقهم أو افترائهم. وقد قسمت الدراسة إلى فصل تمهيدي وأربعة

فصول كالآتي:-

خصصت الفصل التمهيدي لدراسة دوافع الرحلة إلى مصر والشام حيث ظل الشرق الإسلامي محط أنظار الرحالة والمسافرين الذين جاءوا من كل حدب وصوب، ثم طرق السفرإلى الشرق عن طريق البرأو البحر، وكذلك المخاطر والمصاعب التي واجهها الرحالة فى رحلته البحرية فى البحر المتوسط حيث اعتاد الرحالة القادمون من إنجلترا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا المجيء إلى موانيء البندقية وجنوه وبيزه ومرسيليا براً داخل حدود بلادهم حتى الوصول إلى تلك الموانئ، والتي كانت تعد أهم وأقوى وأفضل موانئ البحر المتوسط في أوربا، وكذلك أنواع السفن وتطورها وتحسين مستوى الملاحة، ومواعيد السفر التي ارتبطت بوصول السلع الشرقية الي المونيء البحر المتوسط، ثم عرض التكاليف التي تحملها الرحالة منذ خروجه من وطنه حتي عودته.

أما الفصل الأول، فهو بعنوان "أوضاع وأنظمة البلاط المملوكي" وذلك من خلال رؤية الرحالة ومشاهداته، حيث تناولت في هذا الفصل الحديث عن الطبقة الحاكمة في الدولة وهي المماليك وحياتهم الخاصة، وكذلك السلطان المملوكي الذي كان يعتبر رأس السلطة الحاكمة وطريقة وصوله للحكم وهيئته في المجلس وملابسه وحروبه الداخلية والخارجية، ثم أوضحت طرق عقاب المجرمين والخارجين علي القانون، والنظم الإدارية والقواعد التي وضعها المماليك لتنظيم استقبال السفراء الأجانب والوافدين، وما يلي ذلك من ضرورة وجود بعض الوظائف الهامة في البلاط المملوكي مثل الترجمان و المهمندار.

تناولت في الفصل الثاني "لأوضاع الاقتصادية في مصر والشام" والتى اشتملت علي الزراعة ومصادر المياه -نظم الري- المحاصيل، أما الصناعة فقد استعرضت أهم الصناعات مثل النسيج والأقمشة والملابس - الزجاجية - الخشبية - الطوب - السكر والعسل - الخمور - الزيوت - طحن الحبوب - الأسلحة)، ثم انتقلت للحديث عن التجارة بشقيها، الداخلية (طرق التجارة الداخلية البرية والمائية - الأسواق والسلع - تربية الطيور والحيوانات - حركة البيع والشراء)، وكذلك التجارة الخارجية

(عوامل الجذب والبعد – السلع الصادرة والواردة - الموانئ المصرية والشامية - إجراءات دخول السفن الموانئ المملوكية - المنشآت التجارية).

أما الفصل الثالث فقد خصصته للحديث عن "الأوضاع الاجتماعية للسكان في مصر والشام"، موضحة مراحل النمو السكاني والظروف والعوامل التى ساهمت فى نمو أو تناقص عدد السكان والذى تمثل فى عدم الاستقرار السياسي داخلياً وخارجياً والتدهور الاقتصادي الملحوظ، وعدم استتباب الأمني الداخلي وانتشار الأوبئة والمجاعات على فترات متقاربة، ثم قسمت السكان وفقا لرؤية الرحالة أنفسهم حيث انقسم السكان إلي مسلمين ومسيحيين ويهود وبدو ومعدمين، وتناولت بالشرح والتوضيح حياتهم الاجتماعية وعاداتهم وتقاليهم في المأكل والملبس والأفرح والأحزان، ووسائل الترفية والتسلية والمنشآت الاجتماعية التي اعتمد عليها السكان مثل الحمامات والأسبلة والمدارس.

ثم الفصل الرابع بعنوان "الطوائف الدينية والمزارات المقدسة في مصر والشام" تناولت فيه أحوال الطوائف الدينية المختلفة في مصر والشام، فالطوائف الإسلامية وأهمها ما ذكره الرحالة من الشيعة مثل الحشاشون ثم الدروز فقط، ثم الطوائف المسيحية حوالي عشرطوائف ذكرها الرحالة وتحدثوا عن أوضاعهم وعقائدهم وظروف حياتهم ومعيشتهم وأماكن وجودهم، أما الطوائف اليهودية فهي ثلاث طوائف أساسية انتشرت في مصر والشام، ولا يسعنا هنا إلا أن نتعرض أيضاً للمزارات والمقدسات الدينية للطوائف الدينية استكمالاً لموضوع الدراسة.

وأنهيت الدراسة بخاتمة أجملت فيها أهم النتائج التى توصلت إليها وألحقت بها قائمة بالمصادر والمراجع والدوريات التى استعنت بها فى إعداد هذه الدراسة.

وبعد فإننى أرى لزامًا أن أهدى الشكر والعرفان بالجميل للأستاذة الدكتورة الفاضلة / علية عبد السميع الجنزوري التي اسعدتني بقبولها الإشراف علي الرسالة وقدمت لى التوجيهات والنصائح والإرشادات حتى خرج هذا البحث بهذه الصورة التى أحسبها لائقة، كما أتوجه بخالص الشكر والتقدير إلى الأستاذة الدكتورة / عفاف السيد صبرة، أستاذ التاريخ الوسيط بجامعة الأزهر، والأستاذ الدكتور/ عادل عبد الحافظ، أستاذ التاريخ الوسيط

ورئيس قسم التاريخ بكلية الآداب جامعة المنيا اللذان تفضلًا وتكرمًا على بقبولهما مناقشتى وتوجيهى، كما أعترف بالجميل إلى زملائى وزميلاتى فى الدراسة والبحث العلمى، وشكر خاص لكل العاملين بدار الكتب بالزقازيق لتعاونهم معى ومساندتهم لى، وكذلك لكل العاملين بمكتبة الجامعة الأمريكية ودير الآباء الدومنيكان والمكتبة المركزية بجامعة القاهرة ومكتبة كلية الآداب بجامعة عين شمس، وأقدم أجمل باقات الشكر والأحترام إلى أسرتى حيث رأيت فيهم العطاء والوفاء والإخلاص فلهم منى كل حب وتقدير، وأشكر كل إنسان قد عاوننى وساعدنى فى إخراج هذا البحث.

والله أسأل أن يجعل من هذا الجهد عطاءً نافعاً فى مجال البحث العلمى،

والله الموفق والمستعان.

دراسة تحليلية للمصادر

اعتمدت هذه الدراسة على عدة مصادر أصلية إنجليزية وفرنسية، أو مترجمة من اللاتينية إلى الإنجليزية والفرنسية والعربية أيضا، هذا بالإضافة إلى جانب عدة مصادر عربية معاصرة استفدت منها في نقل بعض الآراء والنصوص الأصلية وعقد مقارنة بين النص الأجنبي والنص العربي لإثبات صحة المادة العلمية للوصول إلى بعض الحقائق.

أولا: كتب الرحالة الأوربيين:

يأتي في مقدمة هذه المصادر كتب الرحلات التي هي أساس الدراسة، والتي خلفها عدد كبير من الرحالة المسيحيين واليهود من رجال الدين أو التجار أو الحجاج أو السفراء وغيرهم الذين زاروا مصر والشام، وترجع أهمية تلك الكتب إلى الملاحظات التي تركها الرحالة عن المدن والسكان والأحداث التاريخية، فقد نزلوا المدن وسجلوا مشاهدات قيمة لم تذكرها المصادر الإسلامية المعاصرة وكلما طالت إقامتهم في المدن كلما عرفوا المزيد فيفتحون بذلك سبلا جديدة تكشف غموض بعض الأمور، ولكن رغم ذلك يجب أن نتناول كتاباتهم وآرائهم بشيء من الشك والتدقيق بسبب اتجاههم نحو التشويق والإثارة فقد استخدموا كلمات مثيرة وفي غير محلها مما يبعدنا عن الواقع، كما يجب أن نراعي اختلاف الثقافات والأفكار والبيئة التي نشأ فيها كل رحالة وأثرها علي شخصيته واهتماماته، وهناك بعض الرحالة الذين نقلوا عن الآخرين مشافهة دون أن يشاهدوا ما سمعوه ودونوه، والبعض منهم نقل عن بعض المؤلفات السابقة حرفيا دون عرض أو تعليق، وآخرون سجلوا مشاهداتهم بعد رجعوهم للوطن بعدة سنوات مما عرضوهم للنسيان فكانت بعض النصوص غير منضبطة وغير متكاملة.

أمكن تقسيم كتب الرحلات إلى كتب رجال الدين الذين تولوا مناصب دينية هامة في بيت المقدس أو الذين زاروا الشرق بغرض الحج وزيارة الأماكن الدينية المقدسة، أو التجار الذين اهتموا بالنواحي الاقتصادية، وأهم مصدر لكتب الرحالة الرهبان هو رحلة الراهب "بورخارد من جبل صهيون Burchard of Mount Sion"، والذي

اقترن اسمه بجبل صهيون وذلك بسبب إقامته على هذا الجبل أكثر من عشر سنوات حيث كان رئيسا لدير جبل صهيون، وكان بورخارد راهبا دومنيكانى سافر إلى الشرق عام ٦٣٠هـ/١٢٣٢م وزار مصر وسوريا وعاش في بيت المقدس ولم يعد إلى ألمانيا حتى تقدم به السن، ويبدو للقارئ أن تاريخ الرحلة كان قبل بداية العصر المملوكي بعدة سنوات إلا أنه قد رجع إلى أوربا ثم عاد إلى بيت المقدس مرة ثانية، ومن خلال مؤلفه نعتقد أنه كتب الرحلة في عشر سنوات وخاصة في المدة التي تتراوح (من ٦٧٤هـ- ١٢٧٥م) إلى (٦٨٤ هـ/ ١٢٨٥م) والدليل على ذلك أنه عاصر فترة حكم السلطان الظاهر بيبرس (٦٥٨-٦٧٦هـ) (١٢٦٠-١٢٧٧م) وشاهد سقوط بعض القلاع والحصون بفضل مجهوده الحربي، ثم عصر السلطان المنصور قلاوون (٦٧٨-٦٨٩هـ) (١٢٧٩-١٢٩٠م) وعلم بالهدنة بينه وبين فرسان الداوية والإسبتارية[١].

([١]) بورخارد من جبل صهيون، وصف الأراضي المقدسة، ترجمة سعيد البيشاوي، عمان، ١٩٩٥، ص ١٦-١٩.

- الدومينيكان: تنسب هذه الجماعة إلى القديس دومينيك (١١٧٠-١٢٢١م) الذي ولد في أسبانيا ثم قام برحلة في فرنسا وخاصة في مدينة تولوز فن سن السادسة والثلاثين في عام ١٢١٥م لمجادلة الالبيجسيين Albigeois في أمور العقيدة وأسس نظام حياة الرهبنة مقتبس من نظام القديس اغسطيس وكون اتباع له وقلم بجهود كثيرة لنشر مبادئه في بلاد المسلمين وفى آسيا وشمال أفريقيا والهند وعندما توفى كانت جماعة الإخوة الوعاظ قد انتشرت في أماكن كثيرة في أوربا والشرق، أنظر:

Margaret ,A history of medieval church 590-1500,London ,1972,pp.150-153.

حسين عطية، إمارة إنطاكية الصليبية والمسلمون (١١٧١-١٢٦٨م)، الإسكندرية، ١٩٨٩م، ص ٢٤٤، حاشية (٦٣).

- الداوية: أول نظم الرهبنة العسكرية أنشئت في بيت المقدس عام ٥١٤هـ / ١١٢٠م وأطلق عليهم الفرنجة الطائفة الدموية و فرسان المعبد نسبه إلى معبد سليمان الذى أطلقه الصليبيون على المسجد الأقصى، حيث تأسس مقر قيادة الداوية وكانت مهمتهم الأساسية هى حماية الحجاج ومرافقتهم في الرحلة في أنحاء الأراضى المقدسة، وقد حصلوا على كثير من الأملاك والمنح والاقطاعات، ثم تحولت إلى هيئة عسكرية وأصبحت جزء من القوة العسكرية الصليبية ضد المسلمين وكانوا يشكلون خطراً على المسلمين، انظر، محمد احمد دهمان، معجم الألفاظ والمصطلحات التاريخية، دار الفكر، سوريا، ط١، ١٩٩٠م، ص ٧٣ ؛ جوناثان رايلى سميث،

أما بالنسبة لرحلته فقد أفادت الباحثة كثيرا، حيث تناول بورخارد في رحلته جميع مظاهر الحياة في بلاد الشام سواء الاجتماعية أو الاقتصادية أو العمرانية أو السياسية في فترة الحروب الصليبية فضلا عن استقراره في الأرض المقدسة وتجول فيها وعرف طرق الوصول إليها ودروبها ومسالكها ومدنها وقراها وأنهارها وعيونها، كما اهتم كثيرا بذكر الأماكن المقدسة فقد كان مرشدا للحجاج، ولذلك جاء وصفه لهذه الأماكن دقيقا، كما لاحظت عليه اعتماده الكبير علي ما ورد في العهد القديم والعهد الجديد.

وذكر أشياء ذات أهمية عن المسلمين فقد تناول في مؤلفه زراعة قصب السكر وشرح عملية صناعته، كذلك اهتم بالجانب العمراني في الشام عند ذكر وصفه للمدن الشامية وبنائها ووصف معيشة سكانها من البدو والتركمان وطريقه حياتهم ومعيشتهم، فضلا عن حديثه عن الطوائف الإسلامية ومنهم الحشاشين وهنا نجده قد انفرد عن بقية الرحالة الأجانب الآخرين الذين لم يهتموا بطوائف المسلمين، ويبدو من خلال كتاباته عدم التعصب فقد عاش مع طوائف متعددة ولم يوجه نقدا سلبيا لهم كما تشير كتاباته إلى سعة إطلاعه وثقافته المتنوعة وقدرته على استيعاب المعلومات وإلمامه بالأحداث التاريخية السابقة لعهده، ولكن لم تخل كتاباته من الخرافات والأساطير سواء عن القديسين والشهداء أو عن بعض الأماكن المقدسة وخاصة القصة التي أوردها عن رغبة السلطان المملوكي في نقل أعمدة ورخام إحدى الكنائس في بيت المقدس ليزين بها القاهرة وعندما بدأ العمال في العمل ظهر فجأة ثعبان ضخم وعندئذ صرف السلطان النظر عن ذلك وعاد إلى القاهرة [٢]، ومن المؤكد أنه إذا ثبت صحة تلك الواقعة فإن السلطان لابد وأنه علم بشيء ما أو شاهد شيئا ما جعله يلغي فكرة نقل الرخام من الكنيسة ولكن هذه القصة لا يستوعبها العقل وقد ذكر نفس القصة "الراهب

تاريخ أوكسفورد للحروب الصليبية، ترجمة، قاسم عبده قاسم، دار عين للنشر، ط١، ٢٠٠٧ م، ص ٢٧٥.

ـ الإسبتارية: انظر، الفصل الأول، ص ٦٠، حاشية (١٢٢).

(٢) بورخارد، وصف الأراضي المقدسة، ص ١٢-١٣.

ـ الحشاشون: أنظر الفصل الرابع، ص ٢٠٦.

فيلكس فابري" Filx Fabri" أيضًا، وعلي أية حال فإن بورخارد كان راهب ورحالة تقي ومتسامح ودقيق جدًا في معلوماته وساعدت صحة أقواله الكثير من الرحالة ولذا تعتبر رحلته أفضل وأهم الرحلات.

ثم يليه في الأهمية الراهب "لودولف فون سوخم Ludolph von Suchem"[٣] الذي قضى خمس سنوات في الشرق من عام (٧٣٧هـ/ ١٣٣٦م) إلى عام (٧٤٢هـ/ ١٣٤١م)، وكتب "وصف الأراضي المقدسة والطرق المؤدية إليها"، فقد كان قسيسا في أبرشية في كنيسة سوخم وقد ألف كتابه وأهداه لصديقه أسقف بادر بورن عام٧٥١هـ/ ١٣٥٠م بعد عودته من بيت المقدس بعشر سنوات ولذلك فإنه يعتذر في مقدمة رحلته عما قد يقع فيه من أخطاء نظرا لضعف الذاكرة والنسيان فاعتمد بشكل واضح على كتابات قديمة، كما نبه القراء إلى أنه لخص بعض المعلومات والأوصاف من رحلات سابقة مثل سقوط عكا [٤]، حيث يبدو لنا أن لودولف لم يكن معاصرا لسقوط مملكة عكا عام ٦٩٠هـ/١٢٩١م لأنه كان قد مر علي تلك الأحداث ٤٥ عاما، وبذلك فهو لا يعتبر شاهد عيان لسقوط عكا بل نقله عن السابقين، كما أهتم بالحديث عن ميناء عكا وقال: "أن تجار إيطاليا وغيرهم من أنحاء العالم كانوا ينزلون فيه واعتبر مخزنا ضخما لجميع أنواع السلع والبضائع"[٥].

تناول فون سوخم في رحلته الطرق المؤدية إلى الأرض المقدسة فوصفها باختصار دون أن يغفل أحدها، منها الطريق البرى المجري – الأناضولى الذي يمر بالمجر وبلغاريا إلى القسطنطينية مارا بتركيا ورودس، أما الطريق البحري فمن البندقية أو مرسيليا، كما أشار إلى طريق بري آخر يبدأ من أسبانيا إلى شمال أفريقيا، وقدم لنا معلومات طريفة عن الأخطار التي يتعرض لها المسافر في البحر مثل العواصف الشديدة والرياح وحدد أسماءها، وكذلك مناطق المياه الضحلة في حوض

([3]) Ludolph Von Suchem , Description of the Holy land and the way thither , translated by Aubrey Stewart , London , 1895.

([4]) Ludolph ,op.cit, pp. 1-3

([5]) Ibid , p. 53.

البحر المتوسط التي تعوق حركة الملاحة ومواعيد السفر المناسبة. ثم قدم لنا معلومات تفصيلية عن الأماكن المقدسة وعن البلاد المقدسة وما جاورها من بلاد الشرق من الناحية الجغرافية والتاريخية والاجتماعية، فتحدث عن أحوال البلاد وقراها وأماكنها الحصينة وقلاعها وسكانها وأماكن التعبد فيها، وتناول الحديث عن الطوائف النصرانية المختلفة كالسريان واليونانيين والأرمن والموارنة وغيرهم، ولكنه خلط بين التاريخ والقصص والشائعات كأنه دون كل ما سمعه دون نقد أو تصحيح.

أما الراهب الأب "فرانسيسكو سوريانو Francisco Souriano"[٦] البندقي الأصل ولد عام ٨٥٤هـ/ ١٤٥٠م وهو من أسرة تجارية نبيلة، تعلم في المدرسة ، وعندما بلغ سن ١٢ سنة اشتغل بتجارة السفن مع عمه في سواحل البحر المتوسط، وزار اليونان وبيروت والإسكندرية، وشاهد في رحلته شواطئ شمال أفريقا وتعرف على عادات وتقاليد السكان، وكان مطلعا على فنادق المدن البحرية عن طريق التجار الأوربيين، وعند سن ٢٥ سنة أصبح راهبا فرنسيسكاني، وكانت رحلته الأولى بعد الرهبنة من عام (٨٨٦هـ ١٤٨١م) إلى (٨٨٩هـ- ١٤٨٤م) إلى بيت المقدس وكان مساعدا للراهب "بولا كانتو Paul de Canneto" الذي عين رئيسا لدير جبل صهيون وعين سوريانو في دير في بيروت وأصبحت مهمته مساعدة المسيحيين الذين كانوا أسرى حرب وتحولوا عن المسيحية، وقد اختير لتلك المهمة لمعرفته باللغة العربية ولصغر سنه، ثم عاد إلى البندقية عام ٨٨٩هـ/ ١٤٨٤م، ومرة أخري إلى بيت المقدس رئيسا لدير جبل صهيون من عام (٨٩٩هـ/ ١٤٩٣م) إلى عام (٩٢١هـ/ ١٥١٥م)[٧]، وقد استفادت الباحثة من الرحلة في تحديد تكاليف ومصاريف الحجاج

([6]) Souriano ,(F.) , Treaties on the holy Land , translated by Fr. Theophilus Bellorini , Jerusalem , 1948.

([7]) Souriano, Treaties on the holy Land ,p p. 1-2.

- هنا يجب أن نوضح أن السلطات المملوكية لم ترغم الأسرى على الدخول في الإسلام بل كانت تطبق الشريعة الإسلامية معهم فكانت تعرض عليم الإسلام أو دفع الجزية فقد حدث في عام ٦٦٢هـ / ١٢٦٣م أن عرض الظاهر بيبرس الإسلام على عدد من الأسرى المغول والفرنج والنوبيين عدة مرات حتى أسلموا، ووزع عليهم مائة وثمانين فرسا كما انضموا للجيش المملوكي، أنظر، المقريزي، تقي الدين أحمد بن على،السلوك،

إلى بيت المقدس عبر البحر والبر إلى يافا وقدم وصفا تفصيليا دقيقا ومنهجيا للتكاليف والرسوم المدفوعة مشتملة على أجرة السفينة وضرائب الجمرك ورسوم دخول الأماكن المقدسة وإجراءات الدخول في الميناء حتى العودة للوطن، والأمر الآخر والأكثر أهمية هو العرض المفصل الدقيق للطوائف النصرانية العشرة، حيث تحدث عن كل طائفة على حدا واختلافهم عن بعض ثم عرض لأهم مهام ومسئوليات رئيس الدير، كما استمر في وصف الطرق والحقول والمدن وموانيها ومحاصيلها، واختص بالذكر والإسهاب الأرض المقدسة من حيث المناخ والتربة والمحاصيل والحيوانات والطيور فيها، وخصص جزءا عن عبادات المسلمين مثل الصلاة والصيام وتناول حقوق المرأة المسلمة عند الزواج وطريقة المعاملة بين الرجل و المرأة، ورغم استمرار وجوده في بلاد الشام حتى أواخر العصر المملوكي إلا أنه لم يذكر التدهور الذي حدث في الدولة ولم يهتم بالنواحي السياسية في المنطقة بل كان اهتمامه منصبا على الوصف الجغرافي ووصف الحياة الاجتماعية للسكان وتقديم الخدمات والإرشادات اللازمة للحجاج[٨].

ج١ق٢، لمعرفة دول الملوك،ج١،ج٢ تحقيق محمد مصطفى زيادة،دار الكب المصرية، ١٩٧٠مص٥١١، ابن عبد الظاهر، محي الدين، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق عبد العزيز خويطر، الرياض، ١٩٧٦م، ص٢٧٥، وعندما أحضر ابن عثمان صاحب الروم جماعة من الأسرى الفرنج هدية للسلطان المؤيد شيخ فعرض عليهم الإسلام فأسلموا طوعا فوزع البعض للعمل في الديوان وفرق بعضهم على الأمراء لخدمتهم برواتب محددة، انظر، ابن إياس، محمد بن أحمد بن إياس المصري، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج٥،تحقيق محمد مصطفى زيادة، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٨٣م.، ص ٣٧ – ٣٨، وفى سنة ٨٧٧هـ/ ١٤٧٢م وصل نائب الإسكندرية إلى القاهرة ومعه عدد من الأسرى الفرنج فعرض عليهم السلطان الإسلام فأسلم منهم ثلاثة وسجن الباقي، انظر، الصيرفي، علي بن داود بن إبراهيم، إنباء الهصر بأنباء العصر، تحقيق حسن حبشي، الهيئة العامة، ٢٠٠٢ م،ص ٤٤٤ ؛ ابن إياس، نفسه، ج٣، ص ٧٥.

([8]) Souriano,op.cit,pp.33-36.

- الطوائف النصرانية: أنظر الفصل الرابع، ص ٢١٠-٢٢٧.

أما الرحلة التي تحمل عنوان "مشاهدات وتجولات فيلكس فابرى Filx Fabri" فتنسب للراهب الألماني الدومنيكاني فيلكس فابرى [٩] وقد ترجمت من اللاتينية إلى الفرنسية والإنجليزية المقسمة إلى أربعة أجزاء - وينتهي الجزء الرابع بوصول الرحالة إلى سيناء - ضمن مجموعة حجاج بيت المقدس ويرمز لها((Palestine Pilgrims Text Society، أما النسخة الفرنسية [١٠] فهي مقسمة إلى ثلاثة أجزاء تشمل الرحلة كاملة وقد اعتمدت عليها فيما يختص بالحديث عن القاهرة والإسكندرية، وقد زار الشرق مرتين، الأولى كانت قصيرة أما الثانية فكانت من عام (٨٨٦هـ/ ١٤٨١م) إلى عام (٨٨٩هـ/ ١٤٨٤م) وسجلها بدقة وإسهاب شديد، وقد سعى لذلك تنفيذًا للعهد الذي قطعه على نفسه لإخوانه الرهبان في دير "أولم Ulm" بأن يسجل كل ما يشاهده تسجيلًا دقيقًا وواقعيًا حول الأماكن المقدسة وعن كل ما نزل به في رحلته ولكنه أيضًا قد أضاف بعض النصوص عن الأماكن التي لم يزرها قط بل سمع حولها أو قرأ عنها من روايات سابقة[١١].

تبين من خلال رحلة الراهب فابرى أنه متعصب كثيرا لديانته فكثرا ما انتقد المسلمين وطريقة حياتهم وأتهمهم بالكثير دون تحرى الأسباب وفهم الأحداث بدقة، كما وصف المرأة المسلمة بالخلاعة، وفى نفس الوقت اختلط بالطوائف المسيحية المختلفة ورأى أن كل الطوائف غارقة في الآثام والخطايا وكلهم يخطئون في فهم العقيدة وبالتالي فهم هراطقة ولا يستحقون الرحمة، أما أفضل طائفة فهي طائفة الدومينيكان التي ينتمي إليها، وتتميز كتابات فابرى بالإسهاب الشديد وخاصة عند الحديث عن النواحي الدينية، فنجده استخدم المنهج السردي الوصفي التفصيلي والتحليلي أيضا عند ذكر المزارات المقدسة مثل الكنائس والأديرة وذلك باستخدام المقاييس المتنوعة مثل الذراع و الخطوات، ولم يكتف بالزيارة مرة بل قام بزيارة تلك

([9]) Fabri , (F.) , The book of the Wandering of Felix Fabri , trans. by Aubrey Stewart , London , 1896.

([10]) Fabri ,(F.) , Le Voyage en Egypte 1483, trad. Du Latin Presente et annote par J. Masson , Le Caire , 1975.

([11]) Fabri , The book of the Wandering , vol 1 part 1, pp. ii – iv.

الأماكن المقدسة عدة مرات ليستطيع تدوينها بأمانة ودقة، كما ذكر آيات كثيرة من الإنجيل ومن أقوال وأشعار القديس جيروم عن السيد المسيح و الحج إلى الأراضي المقدسة، وقرأ رحلات بورخارد ولودولف وغيرهم مما سبب له الحيرة والارتباك لأن وصف الأماكن المقدسة لم يكن متفقا مع ما رآه، وقد استفادت الباحثة من رحلته عند الحديث عن الصعوبات والمخاطر التي يواجهها الرحالة في السفر في البحر والتعليمات التى قدمها للمسافرين والشروط التي يجب أخذها في الاعتبار عند الاتفاق على العقد مع القبطان، وكذلك عند وصف الأماكن المقدسة وخاصة كنيسة الضريح المقدس (كنيسة القيامة) ووصف الضريح ذاته، وكنيسة الميلاد، كما وصف معبد السيد Templum Domini (مسجد قبة الصخرة) وأنه مقدس عند المسلمين وهم مستعدون للدفاع عنه والتخلي عن أي مكان باستثناء المعبد، كما وصف الطريق البرى من غزة إلى سانت كاترين عبر الصحراء وصفاً بالغاً في الدقة والأهمية، ثم تحدث حديثا مطولا عن حاكم غزة وعن سلطة المماليك ومدي الخوف الذي كانوا يسببونه للسكان، كما وصف بدو سيناء وكيف كانوا يهاجمون القوافل وذكر ملابسهم وحياتهم الخاصة وكيف تعرض لخطرهم عدة مرات، وزار دير سانت كاترين وقال عنه "أن هناك حدائق جميلة ورائعة في الدير بها أنواع عديدة من الفاكهة الجيدة والتي كان الرهبان يرسلون منها إلى السلطان في القاهرة" ثم اتجه إلى الطور ثم القاهرة وتقابل مع رئيس التراجمة الذي أسكنه في منزله، وشاهد فيه ما يشبه حديقة الحيوان أو السيرك [١٢]، ومن ناحية أخرى فقد أهمل فابرى ذكر الجوانب السياسية والعسكرية.

وهناك أيضًا الكتاب المتفرد "الرحالة اليهود Jewish Travelers" [١٣] ومؤلفه أدلر"Adler" لأنه يتضمن فقط العديد من الرحالة اليهود الذين زاروا مصر والشام من عام(٣٤٩هـ/ ٩٦٠م) إلى (عام ١١٧٧هـ/ ١٧٥٥م)، ويهمنا في البحث ثلاثة من الرحالة اليهود هم "إسحاق بن شلو الأسباني Isaac ben Joseph ibn

---

([12]) Fabri , The book of the Wandering , vol 1 part 1, , pp. 56-89,261-246,265 ff.
- القديس جيروم، أنظر الفصل الرابع، ص٢٥٩، حاشية (٢٨٢)

([13]) London , 1930. Adler,(E.N.) , Jewish Travelers, 1 ed

Chelo" الذي هاجر مع أسرته إلى بيت المقدس عام٧٣٤هـ/ ١٣٣٣م وأقام هناك وفى عام٧٣٥هـ/ ١٣٣٤م أرسل إلى أبيه وأصدقائه برسالة فيها وصف مختصر للقدس واتبعه بوصف شامل ومفصل للطرق التي تصل القدس بالمدن الفلسطينية الأخرى، وأهم ما ذكره في الرحلة هو الحديث عن اليهود في فلسطين وعلاقة المدن والقرى بالحوادث التي ذكرت في التوراة، كما تحدث عن أبواب القدس ومزارات اليهود المقدسة في نظره مثل برج داوود، وقصر سليمان، وقبر القديسة هيلدا [١٤].

أما الرحالة اليهودي الآخر فهو "الرابى ميشولم بن مناحم الفولتيرى Rabbi Meshullam ben Menahem of Volterra" فقد قام بزيارة الشرق العربي عام ٨٨٦هـ/١٤٨١م، والرحالة الثالث هو "عوبديا برتينورو Obadiah DA Bertinoro"، وقد تضمنت رحلاتهما التنقل بين الإسكندرية والقاهرة وغزة والخليل والقدس ويافا وبيروت ودمشق، وذكر معلومات مفيدة عن الناجيد رئيس اليهود وعن دوره ومهامه والنشاط المختلف للطوائف اليهودية وعادات وتقاليد اليهود وأحوالهم الدينية والاجتماعية وأعيادهم، وكلاهما شديد الملاحظة وشديد العناية بالتعرف على الأشخاص والأماكن، كما وصف ملابس السكان، ووصفوا القاهرة بأنها مدينة كبيرة وهى أكثر حجما من أربعة مدن إيطالية، ومزدحمة السكان، كما أوضحا عاداتهم وتقاليدهم وعقائدهم المختلفة والمتنوعة ومدنهم وأسوارهم وأسواقهم، ويوضح ميشولم أعداد اليهود وأعمالهم ويلفت نظر بني ديانته أن يلبسوا زي التجار المسلمين عند السفر مع القوافل العربية في الصحراء حتى لا يتعرضوا لأذى العربان في الطريق، ثم حكي عن المؤامرة التي تعرض لها من قبل العربان بين الخليل والقدس، كما شاهد بنفسه معاقبة السلطان للمماليك والعربان الذين يعتدون على القوافل، كما ذكر بعض أنواع الأمراض التي يصاب بها المسافر في الصحراء وطريقة علاجها مثل لدغة قملة فرعون واستخدام عصير الليمون للتخلص من آثارها[١٥].

ولا ننسى أيضًا الرحالة الألماني الفارس "أرنولد فون هارف Arnold von

---

(14) Ibid , pp.130- 149.

(15) Adler ,op.cit pp. 157-171, 178 , 219 -229.

Harff"[16] الذي زار مصر عام ٩٠٢هـ/١٤٩٦م، وأمدنا بالعديد من المعلومات التى أفادت البحث في كثير من المواضع، فقد اهتم بالنواحي الاقتصادية فتناول الحديث عن موانئ مصر وخاصة الإسكندرية وميناء الطور وأهمية ذلك للتجار البنادقة وحجم البضائع الشرقية وأسعارها ومدى الكسب المادي الذي حصلت عليه مصر والبندقية كوسيط تجارى بين مصر وأوربا ووصف ميناء الإسكندرية والتقاليد المتبعة في استقبال المسافرين الوافدين إلى الميناء فيقول: "إن حاكم الثغر يرسل رسولا ونحن في عرض البحر ليسأل عنا وعن هدفنا من الرحلة ويعرف عددنا وحجم البضائع علي السفينة ثم يرسلها إلى الحاكم الذى يرسلها بدوره للسلطان في القاهرة ليعطي الإذن بدخول السفينة" كما ذكر الضريبة التي يدفعها التجار والحجاج، وكذلك ملابس السكان من المماليك والعامة من اليهود والمسلمين والمسيحيين نساءً ورجالا، كما تناول بالذكر الصراعات بين الأمراء المماليك للوصول إلى السلطة وتنقلاته مع اثنين من المماليك من أصل ألماني وعلم منهم الكثير عن الحياة في مصر، وأهم ما ذكر في هذه الرحلة هي الرسوم والصور التي رسمها لملابس السكان [17]، ورحلته في الحقيقة خالية من التعصب أو التكلف والمبالغة بل كان محايدًا وصريحًا.

ومن كتب الرحلات الشاملة التي أمدتنا بصورة واضحة عن المجتمع المصري وأحواله الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ما سجله الرحالة الأصدقاء الثلاثة "فريسكو بالدى Frescobaldi" و"جيوشى Gucci" و"سيجولى Sigoli"[18] وهم مواطنون من فلورنسا الإيطالية وجميعهم من أسر فلورنسية عريقة ونبيلة وصحبهم خدمهم وكانوا جميعا في رحلة حج إلى مصر والأرض المقدسة عام ٧٨٦هـ/ ١٣٨٤م أي في بداية حكم المماليك الجراكسة (٧٨٤-٩٢٢ هـ) (١٣٨٢-١٥١٧م)، وتولى

([16]) Harff , (A.V.) , The Pilgrimage of Arnold Von Harff , trans by Letts Malcolm , London , 1946.

([17]) Ibid, pp. 67-71,92-94,103 -105 123 -129.

([18]) Frescobaldi , Gucci , Sigoli , A visit to the Holy Places , trans. by Theophilus Bellorini , Jerusalem , 1948.

الظاهر برقوق السلطة (٧٨٤-٧٩١هـ) (١٣٨٢-١٣٨٩م)، وتكمن أهمية هذه الرحلة في كونها رحلة متكاملة كتبها ثلاثة أصدقاء لذلك جاءت رحلتهم مترابطة ومتشابكة وكل نص يكمل النص الآخر، وقد أوضحوا قيمة المال في الرحلة حيث تحدثوا كثيرا عن أسعار السلع والبضائع والأجور التي يأخذها المكاري والمترجم والدليل، ووصف فريسكو بالدي فنادق الأجانب في الإسكندرية وصفا معماريا جيدا، وعن حجم السلع المكدسة في فنادق البنادقة، وحدد الإجراءات المتبعة في الميناء عند دخول السفن الأجنبية والقواعد التي وضعتها السلطات الحاكمة لتفتيش السفن والركاب والبضائع، وقد وصفوا المدن التي زاروها ونشاط سكانها والطرق التي سلكوها والجاليات الأجنبية التي شاهدوها في تلك المدن، وأهم ما لفت نظرهم بصفة عامة، التحصينات العسكرية في الثغور المصرية وخاصة ميناء الإسكندرية، أما سيجولى فقد استرعى انتباهه عدد السكان وملابسهم وعاداتهم وتقاليدهم، وعن اتساع القاهرة وشوارعها، واستتباب الأمن في العاصمة فلم يجد شخصا يحمل سلاحا على عكس ما كان في الغرب الأوربي، وقد أراد فريسكو بالدى السفر إلى جنوب مصر ولكن الطريق كان مغلقا في وجه الأجانب لأنهم بذلك سيعرفون الطريق السري إلى التجارة الهندية عن طريق صعيد مصر وهذا أيضا ما أكده الرحالة لانجلير، ثم سافر من القاهرة إلى سيناء حيث دير سانت كاترين، ثم إلى فلسطين وبيروت ثم العودة إلى البندقية عن طريق قبرص وكريت[١٩].

وكتاب "إيمانويل بيلوتي الكريتي Emmanuel Piloti de Crete"[٢٠] وهو مواطن كريتي له خبرة طويلة في بلاد عديدة من الشرق، وكان تاجرًا ثريًا في منطقة شرق البحر المتوسط فيما بين عام ٧٩٩هـ/١٣٩٦م وعام ٨٤٠هـ/١٤٣٦م، وامتلك مخازن تجارية في القاهرة والإسكندرية، واستمر في تنقلاته لمدة أربعين عامًا وعاصر خمسة من سلاطين المماليك، وقد كسب صداقة السلطان الظاهر برقوق

([19]) Frescobaldi, A visit to the Holy Places, pp.35- 44, 66, 105 -133, 16-171.

([20]) Dopp , Le Egypt du Commencement du 15 Siecle de Apres le Traite de Emmanuel Piloti de Crete 1420 , Le Caire , 1950.

ولذلك عهد إليه بمهمة دبلوماسية صعبة وقد نفذها على أكمل وجه مما جعله محببًا ومقربًا إليه، وكان رجلًا ذا فطنة وقوة ملاحظة حيث شاهد الطرق المستخدمة في تدريب المماليك الجدد، ونتيجة أقامته في القاهرة والإسكندرية فترة طويلة أدرك حجم التجارة التي تمر من خلال مبنى الجمرك بالإسكندرية مما جعله يؤكد أن القاهرة وباقي المدن لن تكون هكذا بدون مدينة الإسكندرية، كما وصف واردات الأقمشة الصوفية من إقليم الفلاندرز، وبرشلونة، والبندقية وغيرها من السلع والمنتجات الغربية، بالإضافة إلى التوابل والفلفل الشرقي التي كانت تساوى مبالغ طائلة، كما كان يتم تصدير كميات كبيرة من السكر والعطور والكتان والقطن والحرير الممتاز والحيوانات والطيور[٢١].

زار الرحالة الألماني "يوحنا بولونير Johan Poloner"[٢٢] الشام عام ٨٢٥هـ/ ١٤٢١م، ويلاحظ على كتابات بولونير أنها متشابه مع كتابات الرحالة الراهب بورخارد من جبل صهيون حيث يتوافق شرحه بالكلمات نفسها مع كلمات بورخارد - الذي عاش في بيت المقدس وتوفى قبل مجيء بولونير بسنوات عديدة - مع أنها تختلف في الترتيب، ولقد لاحظت الباحثة وجود توافق مستمر بين الأماكن التي رآها بولونير والتي رآها فابرى وبورخارد أيضا، وهناك عبارات صريحة وواضحة تدل على ذلك، ولذلك فمن المؤكد أن بولونير قد نقل حرفيا من بورخارد، كما أنه لم يصف كنيسة الضريح المقدس والتي كانت هدفا أساسياً في الرحلة، ولدى قراءة الرحلة نجدها كتلة واحدة ولا يوجد في كلامه ما يشير إلى أنه سيخصص جزء من الرحلة لشرح ووصف الكنيسة، بالإضافة إلى أنه لم يقدم لنا حقائق جديدة مرتبطة بالجغرافية القديمة، أما أهمية الرحلة فترجع إلى أنه أول حاج رسم خريطة للأرض المقدسة وقسم فيها البلاد إلى مربعات كثيرة العدد.

وهناك رحلة السفير البندقى "دومينكو تريفزانى Dominco Trevisani"[٢٣] الذي زار مصر عام ٩١٨هـ/١٥١٢م وقد أرسله مجلس السناتو البندقي للسلطان الغوري

---

(21) Dopp , Le Egypte , pp.17-18 , 21-26, 43-63.

(22) Poloner , (J.) , Description of the Holy Land 1421 , trans by Aubrey Stewart , in P.P.T.S , vol 6 , London , 1894.

(23) Schefer , (C.H.) , Le Voyage de Jean Thenaud et Dominico Trevisani , Paris , 1864.

بهدف تحسين العلاقات التجارية بين مصر والبندقية وعقد صفقات جديدة يعطى فيها السلطان امتيازات أفضل مما سبق ويحسن معاملة التجار الأجانب ويعاقب الموظفين في الجمرك على سوء معاملتهم لتجار بلده، وقد أمدنا تريفزانى بمعلومات هامة وممتازة عن مراسم استقبال السفر في البلاط المملوكي ومراحل مقابلة السلطان في القاهرة، وأكدت تلك المعلومات على مدى قوة العلاقة التجارية بين مصر والبندقية ومدى حرص الأخيرة على استمرار العلاقة وتحسينها وتطويرها للاستفادة من مكاسب التجارة الشرقية وخاصة في الوقت الذي بدأت فيه البرتغال في التحرك بإرسال بعثات استكشافية للدوران حول أفريقيا للوصول إلى الهند بدلا من وساطة المماليك والبنادقة وفى نفس الوقت كانت هناك علاقات سرية بين الشاه إسماعيل الصفوى العدو اللدود للسلطان وبين البنادقة، لذا أسرعت البندقية لتؤكد صداقتها القوية المستمرة مع مصر[٢٤].

أما الرحالة الإيطالي "لودفيكو فارتيما Ludovico Di Varthema"[٢٥] فهو إيطالي المولد فقط ثم عاش في البرتغال وربما كان رجلا عسكريا نتيجة اهتمامه بوصف الأسلحة والتجمعات العسكرية في رحلته وفى نفس الوقت فإنه كان على صلة بملك البرتغال وكون علاقة قوية معه جعلته يحصل منه على شهادة الفروسية، فكانت رحلته بمثابة جزء من جهود الملك البرتغالي في اكتشاف الطرق المؤدية إلى ثروات الشرق عامة والهند خاصة وقد تزامنت رحلته من عام (٩٠٩هـ/١٥٠٣م) إلى عام (٩١٥هـ/١٥٠٩م) لمصر والشام والحجاز واليمن مع رحلات فاسكو دى جاما لتحقيق نفس الهدف، وكانت مهمته وصف عادات الشعوب ووصف المدن وحياة المماليك فيها وشاهد بنفسه سلطة المماليك وقوتهم وتسلطهم على الناس، ولكي يصل إلى الحجاز والبحر الأحمر قدم نفسه لأهل الحجاز واليمن وسكان الخليج الفارسي على اعتبار أنه الحاج يونس المصري وفى بلاد الهند باسم يونس الفارسي، ولاحظنا أن وصفه لمصر والشام قد اقتصر على مدن معينة مثل القاهرة والإسكندرية ودمشق وحماة وبيروت، وأسهب واعتنى بوصف بلاد اليمن والهند وهذا دليل واضح على أن مهمته كانت التجسس وإرسال المعلومات اللازمة للملك البرتغالي[٢٦].

---

(24) Schefer, Le Voyage de Jean Thenaud , pp. 180- 191, 205 -207.

(٢٥) لود فيكو فارتيما، رحلات فارتيما (الحاج يونس المصري)، ترجمة عبد الرحمن الشيخ، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤م.

(٢٦) فارتيما، رحلة فارتيما، ص ٩-١٢، ٢٣ -٣٢.

ولدينا أيضًا رحلة هامة لعضو مجلس الشيوخ وهو "جلبيرت دى لانوى Ghillebert de Lannoy"[٢٧] الذي أرسله ملوك إنجلترا وفرنسا والدوق فيليب الطيب إلى الشرق عام ٨٢٥هـ/١٤٢١م وأدى ذلك إلى تأليفه الكتاب، وقد استفادت منه الباحثة كثيرا، فعندما نقرأ الرحلة نجد أنه اهتم فيه بذكر وصف الأراضي المصرية والشامية من ناحية التضاريس والوصف الجغرافي بدقة شديدة موضحًا الأماكن التي يصلح عندها بناء الأبراج والحصون، كما قدم وصفا للقلاع والحصون المنتشرة على الحدود والسواحل سواء كانت مهدمة أو سليمة البناء موضحا أيضا مواقع الضعف والقوة فيها، كما وصف أفرع النيل رشيد ودمياط طولا وعرضا وعمقا وذكر ميعاد فيضان النيل وأثره على الفرعين وكيفية دخول السفن إلى الفروع والميعاد المناسب لذلك حتى تناسب الرياح وفيضان النيل، ولاحظت الباحثة أيضا انه اهتم بالنواحي العسكرية والاقتصادية والسياسية وقوة السلطان وطريقة وصوله للعرش وعن الجند وأصلهم وتدريبهم أكثر من وصف المزارات المقدسة، وهنا يتبين لنا أنه ربما كان يسعى للتجهيز لحملة صليبية.

- هناك بعض الملاحظات العامة عن كتابات الرحالة الأوربيين:-

-اعتماد الرحالة على ما جاء في الكتاب المقدس من التوراة والإنجيل وأشعار القديسين وأقوالهم وخاصة عند وصف المزارات الدينية المقدسة لزيادة قدسيتها.

-اتجه بعض الرحالة إلى الاقتباس من الرحلات السابقة أو السرقة منها متعمدا مثل يوحنا بولونير وغيره.

-ذكر الخرافات والأساطير عن الشخصيات الهامة أو عن الأماكن الدينية لإضفاء قدر من الإثارة.

-عدم ذكر أسماء بعض المناطق والأسواق والشوارع كما هى، وعدم القدرة على تحديد المكان بدقة.

-لم يصف الرحالة ملابس سكان الريف بل اهتموا بذكر ملابس الطبقة الحاكمة والشعب في المدن وربما يعود ذلك إلى أنهم لم ينزلوا القرى أو يقيموا فيها بل كانت إقامتهم في المدن والثغور.

-أغفل الرحالة ذكر مساحة الأراضي الزراعية وتقسيمها ونظام الملكية

([27]) Potvin,(C.H),Oeuvres de Ghillebert de Lannoy, London, 1878.

والتغيير الذى حدث للأرض، في حين أنهم اهتموا كثيرا بذكر مصادر المياه وخاصة نهر النيل وطوله وعرضه وفيضانه وفائدته.

-تكرار قول الرحالة بازدحام المدن الكبرى حتى في وقت الضعف وتدهور الأحوال الداخلية ويرجع ذلك إلى ضيق الشوارع وكثرة المنازل المتلاصقة، بالإضافة إلى قله السكان في أوربا بالنسبة للشرق.

-ذكر بعض المزارات والأماكن الدينية الهامة والتي لم تذكر في المصادر العربية المعاصرة.

-استخدموا لفظ أو كلمة بابليون عند الحديث عن القاهرة أو مصر، لأنه الاسم الذي عرفه الأوربيون في العصور الوسطى.

-كما استخدموا كلمة "moors" وتعنى المغاربة، وكذلك كلمة الكفار للدلالة على المسلمين بصفة عامة. وأيضا كلمة Saracen وتعنى السراقنة أو السوريين وقد اتسع مدلولها في عصر الحروب الصليبية، حيث أطلق الحجاج والمؤرخون الصليبيون هذه الكلمة على المسلمين وكثر تفسيرها فقد أرجعها البعض إلى قبيلة السوارقة أو السواركة التي كانت تسكن الساحل بين غزة والفرما، ورأى آخر أنها مشتقة من لفظ سرق ويقصد بهم البدو الذين عاشوا علي السلب والنهب، في حين رأى آخرون أن اللفظ مشتق من شرق بمعنى الجهة [٢٨].

-تعرض بعض الرحالة للحبس والاعتقال مثل جستيل وكازولا وفون هارف وقت غارات القراصنة على السواحل المصرية والشامية، وهذا يعنى أنهم كانوا رهائن في أيدي السلطات الحاكمة وورقة تضغط بها على القراصنة والدول التي تساعدهم لإجبارهم على كف أيديهم عن الثغور والسفن المملوكية في البحر المتوسط.

-أكد الرحالة عدم استتباب الأمن في الطرق الصحراوية وتعرضهم لأذى العربان كثيرا رغم الجهود العسكرية التي قام بها سلاطين المماليك إلا أنهم سرعان ما كانوا يعودون دون خشية السلطان.

كما توجد بعض المصادر الأجنبية الهامة والتي أفادت الباحث كثيرا في موضوع الدراسة مثل، كتاب توماس رايت Wright بعنوان " Early travelers in Palestine" وبه العديد من الرحلات التي ترجمها المؤلف من اللاتينية أو الفرنسية إلى الإنجليزية، و كتاب "The book of Margery Kemp" للمؤلف سكينر

([٢٨]) بورخارد، وصف الأراضي المقدسة، ص ٣١.

Skiner وهو أول عرض لرحلة سيدة إنجليزية سافرت للأراضي المقدسة لطلب الغفران، وكذلك كتاب " The Travel of Martin Baumgarten through Egypt , Syria , Palestine" لصاحب الرحلة ذاته وهو مارتين بوم جارتن، ثم الكتاب الذى جمع فيه المؤرخ والكاتب "دوب Dopp" مجموعة من الرحلات المختصرة في عصر المماليك ويحمل عنوان " Le Caire vu par les Voyageures"، وأيضًا كتاب " Canon Petro Casola Pilgrimage to Jerusalem" والذي ترجمة الكاتب Newett.

ثانيًا المصادر العربية:

أما فيما يتعلق بالمصادر التاريخية التي اعتمدنا عليها في هذه الدراسة، فيأتي على رأسها كتاب "السلوك لمعرفة دول الملوك" للمقريزي المتوفى عام ٨٤٥هـ / ١٤٤١م[٢٩] الذي أفاد الباحثة في الإشارة إلى مظاهر النمو والازدهار في الدولة، ثم مظاهر الانهيار، وأثر ذلك على الوجود الأجنبي في الدولة المملوكية، كما أشار إلى موقف السلطات المملوكية من الأجانب المقيمين في حالة الغارات التي شنها القراصنة على السواحل المصرية، و علاقة السلطان المملوكي بالعربان، ووصف عادات وتقاليد المصريين وملابسهم ومعيشتهم، وكذلك كتابه "المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار"[٣٠] الذي يعد من أشهر مؤلفاته حيث تناول فيه ذكر الخانات والحمامات في القاهرة، وكذلك تاريخ نشأة الطوائف الدينية للنصارى واليهود في مصر فقط وأماكن تواجدهم وحياتهم الخاصة وطقوسهم واختلافهم عن بعض، وذكر الكنائس والأديرة اليهودية والنصرانية. ويليه كتاب "بدائع الزهور في وقائع الدهور" لابن إياس المتوفى ٩٣٠هـ/ ١٥٢٣م [٣١] الذي يعد أحد المصادر الإسلامية المعاصرة حيث أضاف تفصيلات واضحة للحالة المتردية في المجتمع المصري والأخطار الخارجية التي واجهت الدولة المملوكية في العصر الجركسي متمثلة في الخطر العثماني والبرتغالي والوسائل إلى اتخذتها السلطات المملوكية لمواجهة هذين الخطرين، وكذلك سوء معاملة المماليك للناس ومصادرة الأموال والأراضي وهجمات

([٢٩]) المقريزي، تقي الدين احمد بن علي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ١٢م، تحقيق محمد مصطفي زيادة، سعيد عاشور، دار الكتب المصرية، ١٩٧٠ م.

([٣٠]) الخطط المقريزية، ٤ أجزاء، نشر كلية الآداب، القاهرة، ١٩٩٦م.

([٣١]) ابن إياس، محمد بن أحمد بن إياس الحنفي، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ٥ أجزاء، تحقيق محمد مصطفى، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٨٢.

المماليك على الأسواق والمحلات التجارية وعن علاقتهم بالسلطان.

كذلك يأتي كتاب "الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل"[٣٢]، ومؤلفه هو مجير الدين الحنبلي المتوفى عام ٩٢٨ هـ/١٥٢١م مثالا لكتب التراث والتاريخ المحلى، وهو من أبناء بيت المقدس وكان معاصرا للفترة الأخيرة من حكم سلاطين المماليك، واتصفت كتاباته بالأمانة والدقة، كما لم تكن كتاباته تكملة للمصادر الأخرى، بل هو كتاب متفرد ومتميز في تاريخ القدس والخليل، ويعتبر أيضا موسوعة تاريخية احتوت على السير والتراجم لشخصيات سياسية ودينية وأدبية وعلماء مشهورين في عصره، كما أمدت الباحثة بصورة تخطيطية لمدينة القدس فذكر أبوابها ومبانيها وشوارعها وحاراتها وأسواقها والخانات والقياسر وهذا الجزء الثاني مثل كتاب الخطط للمقريزي، كما حدثنا عن اضطراب الحياة الاقتصادية وأسبابه، إلى جانب التركيبة السكانية والطوائف المختلفة في المدينة والعلاقات بينها، وأهم المزارات والمقدسات الدينية لتلك الطوائف وتاريخ بنائها والتطورات التي حدثت عليها مثل المسجد الأقصى وأبوابه والمدارس التابعة للمسجد وطريقة التعليم، ومسجد الصخرة، وكنيسة القيامة، وكنيسة الميلاد، وأديرة اليهود، بالإضافة إلى ذكره للمنشآت الاجتماعية مثل الأسبلة والحمامات.

ومن المؤلفات الشاملة كتاب "مسالك الأبصار في ممالك الأمصار"[٣٣] لمؤلفه ابن فضل الله العمري المتوفى عام ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م، وكان كاتب السر في البلاط المملوكي، وترجع أهمية هذا المصدر إلى أنه مصدر شامل يضم معارف عديدة ومعلومات متنوعة عن الديانات والتاريخ والآثار والمعلومات المتوفرة عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية والنظم الإدارية ووظائف البلاط المملوكي في مصر والشام وبيت المقدس، وخصص لكل منهم فصلًا مستقلًا.

كذلك كتب الرحلات منها رحلة ابن بطوطة (٧٠٣هـ / ١٣٠٤م) [٣٤] وهو من كتب الرحلات العربية المهمة لهذه الدراسة، فقد أمد الباحثة بوصف رائع لمدينة القاهرة

---

(٣٢) الحنبلي، القاضي مجير الدين الحنبلي، تاريخ القدس والخليل، جزاءان، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٣ م.

(٣٣) العمري، شهاب الدين أبي العباس احمد بن يحيي بن فضل الله العمرى، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ج٢، تحقيق دوروتيا كرافولسكي، ط١، بيروت، ١٩٨٦ م.

(٣٤) ابن بطوطة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، بيروت ١٩٦٠.

ومدى ثرائها وقوتها الاقتصادية واتساع مساحتها وكثرة عدد السكان بها وأنها مدينة للجميع من التجار والرحالة والغنى والفقير والعالم والجاهل،و عن الرفاهية التي عاشت فيها البلاد في عصر الناصر محمد بن قلاوون عام ٧٢٥هـ/١٣٢٤م، ووصف ميناء الإسكندرية وصفا دقيقا وحجم التجارة فيه والنظم المتبعة لتفتيش السفن القادمة للميناء، كما ذكر الخانات المتوفرة على الحدود الخارجية للبلاد، وتحدث عن وسائل التنقل الداخلية في مصر، وأفاد البحث أيضا عند الحديث عن فيضان النيل وميعاده والنسبة المطلوبة للفيضان المناسب وأثر ذلك على الزراعة، ثم الحديث عن المقابر واستخدامها مكانا للترفية والتسلية، كما حدثنا عن بعض مظاهر الحياة الاجتماعية في مصر مثل الاحتفال بهلال شهر رمضان ويوم دروان المحمل حيث تزدهر الأسواق والشوارع ويخرج الجميع للفرجة، ولذا يعتبر كتابه وصف للحياة المصرية، وكذلك كتاب رحلة ابن جبير (٥٤٠-٦١٤هـ) (١١٤٥-١٢١٧م) [٣٥] فقد كان ابن جبير عربياً أندلسياً وعمل كاتم سر عند أمير غرناطة وقام برحلة حج لمدة سنتين دون فيها مشاهداته وملاحظاته في يوميات وافية وشاملة أفادتني في وصف الموانئ المصرية والشامية وأيضاً ما قدمه من عرض لعملية تفتيش السفن والركاب وقيام موظفين مسلمين بتسجيل أسماء الركاب وجنسياتهم وبضائعهم قبل النزول إلى البر، فضلاً على أنه طاف مصر والشام وقدم وصفا للمزارات الإسلامية وأوضح حياة الطوائف الدينية وخاصة الشيعة.

ومن كتب الفقه، كتاب الفقيه المغربي "ابن الحاج" المتوفى (٧٣٧هـ/ ١٣٣٦ م) [٣٦] الذي انفرد بأهمية كبيرة لأنه تضمن الكثير من المعلومات حول عادات وتقاليد المجتمع المصري في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي، كما وضح أيضا روح التفاهم والوئام التي سادت العلاقات بين المسلمين وأهل الذمة من اليهود والنصارى واشتراك الجميع في عادات وتقاليد واحدة وتشبههم بالبعض وخاصة في الأعياد والمناسبات المتنوعة، ومن ناحية أخرى فإنه وجه النقد اللاذع لمختلف نواحي الحياة لما ساد فيها من فساد أخلاقي وديني وسخر من بعض الأوضاع السائدة في عصره، ويأتي بعده في الأهمية كتاب معالم القربة في أحكام الحسبة[٣٧] الذي حدد

---

[٣٥] أبى الحسن محمد بن أحمد بن جبير، رحلة ابن جبير، تحقيق محمد زينهم، دار المعارف، ٢٠٠٠م.

[٣٦] ابن الحاج، أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري الفاسي، المدخل إلي الشرع الشريف، ٤ أجزاء، دار الحديث، بيروت، ١٩٨١ م.

[٣٧] محمد بن محمد بن أحمد القرشي المعروف بابن الأخوة، معالم القربة في أحكام الحسبة، نشر

الشروط والقيود التى كان على أهل الذمة أن يخضعوا لها وقد أوضح ابن الأخوة أنها قيود نظرية لا تطبق في الواقع حيث لم توجد فروق واضحة بين المسلمين وبين أهل الذمة، كما أكد مدى حرص المحتسب على الاهتمام بالنظافة العامة ودوره في مراقبة نظافة الحمامات العامة في المدن الكبرى.

روبن ليوى، مكتبة المتنبي، القاهرة، ب.ت.

التمهيد

- دوافع الرحلة إلى مصر والشام:

اتصل الأوربيون بالشرق الإسلامي منذ العصور القديمة التي شهدت أولى العلاقات التجارية والدينية والعسكرية والسياسية بين أوربا وتلك المنطقة، وبحكم قانون التطور ونمو الحاجات الاجتماعية والعلمية، بالإضافة إلي ظهور سياسات متعددة ومتنوعة في العالم، وخاصة سياسة التبشير الديني المتجه إلي الشرق الإسلامي والتي أدت إلى تقوية الصلات والعلاقات في العصور الوسطي.

لقد ظل الشرق الإسلامي محط أنظار الرحالة والمسافرين الذين جاءوا من كل حدب وصوب، ولم تتوقف تلك الرحلات، ولكنها كانت أحيانا تزيد وأحياناً تقل، وفقاً للظروف السياسية والعسكرية المحيطة بالمنطقة، ووفقاً للعلاقات بين الدولة المملوكية وبين الدول الأوربية، فكلما كانت العلاقات ودية وطيبة استمر تدفق المسافرين، وعندما كان يتعكر صفو تلك العلاقات وتسوء الأحوال بين الطرفين، أثر ذلك على حركة السفر والملاحة وتقل أعداد الرحالة إلا إنها لم تتوقف تماماً.

اعتاد الرحالة الأوربيون زيارة بلاد الشرق الإسلامي لأغراض شتى كالسفارات والبعثات أو السياحة أوالاستطلاع أو التجارة أو الحج، وقد جذبتهم تلك البلاد بما فيها من جمال وغنى ومتعة للوافدين، ولم تأخذ تلك الرحلات شكلها الفعلي إلا في القرون الوسطي بمصاحبة الحملات الصليبية على الشرق وبقيت بعد رحيل الصليبيين مستمرة ولكنها ليست على وتيرة واحدة.

تنوعت الأهداف ودوافع الرحالة الذين جاءوا إلي الدولة المملوكية، وتحملوا مصاعب جمة ومخاطر كبيرة، فهنالك من جاء بهدف الحج وزيارة الأماكن المقدسة في مصر والشام والمرتبطة بسيرة السيد المسيح، وكذلك زيارة الأديرة والكنائس والأضرحة الخاصة بالقديسين، أومن جاء راهبا وواعظا ليتم تعيينه في أحد الأديرة، أو كان سفيراً من ملك ما لطلب الصلح أو عقد هدنة أو للتهديد، أو للتجسس، أو لعقد اتفاقيات تجارية والحصول على امتيازات تجارية جديدة لرعايا بلاده، بالإضافة إلى

الدوافع الاقتصادية إذ ذهب الكثيرين إلى بلاد الشام منذ بداية الحروب الصليبية وأقاموا فيها وحققوا أرباحاً مادية هائلة، نتيجة القيام بدور الوسيط التجاري بين الشرق والغرب فتردد الكثير من هؤلاء الرحالة على الموانئ المصرية والشامية وتجولوا في البلاد للبيع والشراء. هذا بالإضافة إلي الرغبة في معرفة أوضاع إخوانهم المسيحيين الشرقيين للتمهيد لإرسال حملات صليبية أخرى إلى الشرق لحماية المقدسات المسيحية في الشرق الإسلامي، أو لأسباب خاصة تتعلق برغبة الرحالة ذاته في التجول والاستطلاع للتعرف على أحوال الناس ودراسة عادات وتقاليد شعوب جديدة لا يعلم عنها شيئًا.

تعتبر كتب الرحالة الأجانب الذين زاروا الشرق زمن سلاطين المماليك مصادر من الدرجة الأولى إذ إنها عبارة عن سرد للأحداث ووصف للأماكن وفقاً لرؤية شاهد عيان لمس تلك الأمور بنفسه إما عن طريق المشاهدة أو عن طريق الرواية أو المشاركة الفعلية، ولذلك سوف نتناول تلك الدوافع وفقاً لما ذكره الرحالة أنفسهم.

انتشر الحج منذ بداية المسيحية وازداد في قرونها الأولى ولكنه كان نادرًا إلى حد ما، وما أن جاء القرن الثالث الميلادي حتى بدأ المسيحيون بزيارة الأماكن المقدسة وخاصة بعد انتصار المسيحية واعتراف الإمبراطور قنسطنطين الأول **Constantine 1** (٣٠٦ – ٣٣٧ م) بها ثم قيامه بالسماح للمسيحيين بالحج إلى الأرض المقدسة، وفى ذلك الوقت وضعت الكنيسة برنامجاً لزيارة الأماكن المقدسة في فلسطين ومصر وشجعت العديد من المسيحيين الأوروبيين "للذهاب ورؤية المناطق التي ولد فيها السيد المسيح وعاش وعمل ونشر دعوته وتعرض للعذاب والخيانة حتى رفع إلى السماء والهدف من ذلك هو المشاركة الروحية لحياة المسيح من خلال تأدية هذه الطقوس الدينية"[٣٨].

اختلفت وجهة النظر في رحلة الحج فالبعض أوضح أنها أكثر من كونها مجرد رحلة، أو أنها العودة إلى الوطن بهدايا تذكارية وقصص ومغامرات عاشها

([38]) Encyclopedia of Religion , vol 10 ,2ed , U.S.A, 2005, p.7153.

الحجاج، بل ربما تكون مرحلة هامة تتضمن تغيرات وتحولات داخل وخارج الإنسان وتؤثر في تكوينه، أو أنها مرحلة للبحث عن الهدف العظيم والبحث عن الذات، وآخرون قالوا أن رحلة الحج وسيلة للدخول في إطار التقوى والورع وخاصة أن الكنيسة شجعتهم علي الرحيل ومنحتهم الغفران حتى لو استغرقت الرحلة عدة شهور، وكان القساوسة يباركون الحجاج وهم يرتدون ملابس الحج لإضفاء صورة روحية ودينية علي الحاج. ومنذ العصور اليونانية الكلاسيكية حتى اليوم كانت الرحلات الدينية تعنى شيئا هاما ومختلفا لكل شخص ليدرى حقيقة نفسه وحياته [٣٩].

تلازمت رحلات الحج والحملات الصليبية معاً والدليل علي ذلك أن الحملات الصليبية بدأت على أساس أنها رحلات حج (تحت ستار ديني) ورغبة الحجاج في تقديم فروض الطاعة والولاء والندم والتوبة [٤٠] بدأ الحج المسيحي من فلسطين حيث ولد السيد المسيح وأكمل رسالته ثم إلي مصر مهد الرهبنة المسيحية، ولذلك ليس من المدهش أن تصبح القدس هي نقطة ومركز الحج المسيحي، هذا بالإضافة إلي أنها كانت مركز الحج اليهودي أيضا لأن بها معبد القدس الذي كان يعتبر مكاناً دائماً للحج اليهودي [٤١].إلي جانب أنها بقعة إسلامية مقدسة بدأ منها سيدنا محمد صلي الله عليه وسلم رحلة المعراج إلي السماء وبها أيضا المسجد الأقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين.

هكذا قام كثير من اليهود والنصارى برحلات الحج إلى بيت المقدس منذ سنوات على اعتبار أنها من أجمل وأهم المدن في ديانتهم وأصبحت تلك الرحلة جادة وهامة بعد نجاح قنسطنطين الأول في الاعتراف بالمسيحية ديانة رسمية عام ٣١٣ م بعد إصدار مرسوم ميلان، وكانت أول رحلة مسيحية إلى بيت المقدس تلك التي قامت

---

(1) Coleman, (S.) , and Elsmere (J.) , pilgrimage past and present in the world religions ,Cambridge , 1995 , p.6.

(2) Atiya, (A.S.) ,the latter crusades in the middle ages , London ,1938, p.155.

(3) Encyclopedia of religion , p.7152

بها الإمبراطورة القديسة هيلانة والدة الإمبراطور قنسطنطين وسجلت رحلتها ودونت ما شاهدته وما قدمته من خدمات للأماكن المقدسة، كما بنت هناك كنائس وأديرة وساعدها في ذلك الإمبراطور قنسطنطين ما أدى إلى نشر المسيحية وتطور رحلة الحج [٤٢]، وبذلك أصبحت رحلة الحج الحقيقية هي الرحلة إلى الأرض المقدسة ويقصد بها الرحلة إلى بيت المقدس وذلك منذ بداية العصر المسيحي واستمرت إلى القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي وحتى بعد سقوط عكا عام ٦٩١هـ / ١٢٩١ م واضمحلال المملكة الصليبية [٤٣]. ولازالت حتى يومنا هذا.

زادت بذلك أعداد الحجاج إلى فلسطين منذ عام (٤٩٣هـ- إلي٥٨٣ هـ) (١٠٩٩م- إلى عام ١١٨٧م) وهى الفترة التي حكم فيها الصليبيون المنطقة وبعد عام ٤٩٤ هـ / ١١٠٠ م حدثت تغيرات وتأثيرات عديدة وهامة، أهمها استخدام القوة التي حققت السلام لكل النصارى فساهم ذلك في حرية الحركة والسفر لمشاهدة الأماكن المقدسة، وبذلك قد أعطى الغزو الصليبي للأراضي المقدسة للناس فرصة سهلة وميسرة للنصارى للسفر إليها فأدى ذلك إلى زيادة واضحة في رحلات الحج في تلك الفترة، وبالتالي زيادة في النصوص المكتوبة[٤٤]. وهناك إشارات واضحة من خلال الرسوم على حوائط وساديب الموتي توضح أن هناك تدفق واضح وثابت لرحلات الحج إلى فلسطين [٤٥].

اعتمد نظام الكنيسة للتكفير عن الذنوب التي يرتكبها الفرد الكاثوليكي على أساس ثلاث مراحل هي الاعتراف والرضا والمصالحة، ثم تطورت مفاهيم الكنيسة حول هذا الموضع بحيث صار على المذنب أن يقوم بأعمال قاسية لفترة طويلة للتكفير عن ذنوبه، وكان الحج إلى الأراضي المقدسة واحدا من أهم أعمال التكفير عن

---

(4) Calemon , pilgrimage past and present , pp.78-80.

(1) Wad,(M.),Medieval travelers , London ,1983 , p.72.

(2) Renna,(T.) , Jerusalem in medieval through 400-1300 , Lewiston ,2002, p.108, 181.

(3) Gale,(T.),New catholic encyclopedia ,U.S.A , 2003 , p. 345.

الذنوب، ويستمر ذلك لسنوات طويلة، وكان المذنب يرتدى ملابس وضيعة أوكان يقيد بالسلاسل رمزاً على إنه معاقب مؤقتاً بسبب الذنوب التي اقترفها[٤٦].

ولم تقتصر رحلات الحج إلى الأراضي المقدسة في العصور الوسطي على المذنبين والمجرمين بل قام بتلك الرحلات أيضاً جميع الطبقات، فالملوك والملكات كانوا يفضلون القيام بالرحلة إلى الأضرحة المقدسة في المملكة، وكان النبلاء والسادة ونساء النبلاء يفضلون جميعاً السفر بالسفن أو عن طريق البر إلى الأرض المقدسة أو إلى القسطنطينية، كما سافرت تلك الطبقة العليا من الحجاج في راحة وأمان، محاطة بالرعاية والاهتمام من قبل الحاشية والأتباع، ولكنهم جميعاً كانوا يشتركون في رغبة واحدة هي رؤية المناطق التي عاش فيها السيد المسيح، والحصول على البركة والغفران والشكر عند زيارة أضرحة القديسين المشهورين، وفى فترة العصور الوسطي كانت هناك تقوى وورع بين العامة والخاصة وأصبحت رحلة الحج تستحق التقدير والاهتمام وكانت تقوى المرء تكمن في زيارته للأماكن المقدسة بصفة عامة [٤٧].

ومن بداية عام (٤٩٠هـ /١٠٩٦م) وحتى القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي، ومع استمرار إرسال الحملات الصليبية إلى الأراضي المقدسة، وفى عام (٥٨٣هـ / ١١٨٧م) استطاع المسلمون بقيادة صلاح الدين استرداد بيت المقدس، وفيما بعد استولي الصليبيون علي جزء صغير من الأراضي المقدسة، وحتى سقوط عكا أخر المعاقل الصليبية في بلاد الشام عام ٦٩٠هـ/١٢٩١م) ومنذ القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي، كان الحجاج يتعرضون لأخطار ناتجة عن قطاع الطرق واللصوص، مع انتشار المجاعات والجفاف والطاعون الذي سبب جزعاً للحجاج القادمين، ونتيجة للحروب الصليبية زادت الأسعار والرسوم والضرائب [٤٨]، وفى عهد المماليك (٦٤٨ – ٩٢٣ هـ) (١٢٥٠ -١٥١٧ م) كانوا ينظمون بدقة تلك

---

(4) Gale, New catholic encyclopedia ,pp. 345 – 385

(1) Wad, Medieval travelers , p.68.

(2) Mina,(K.),Israel land of Jews , new York , 1972 , p. 165.

الرحلات ويضعون قواعد معينة منذ هبوط الحجاج إلى يافا من السفن البندقية سواء فيما يتعلق بإجراءات استقبال السفن أو التحميل والشحن والنزهة وإعداد المرشدين وجدول مواعيد وصول السفن [٤٩].

أما مصر فقد حظيت بزيارة الحجاج إليها وأجمعت المراجع والمصادر التي تؤرخ لتاريخ المسيحية أن سيناء أرض مقدسة مثل بيت المقدس وزادت أهميتها بعد أن أصبحت مركزاً لحركة الرهبنة، كما كرمها الرب برحلات الأنبياء والرسل والقديسين في كل مراحلها، وهكذا اعتبرت مصر أرضاً مقدسة وكان أغلب الحجاج الذين يذهبون إلى بيت المقدس يمرون على مصر ضمن برنامج الرحلة [٥٠].

جاء الرحالة جلبيرت دي لانوى **Ghillebert de lanoy** إلي الشرق بتكليف من ملك فرنسا شارل السادس **Charl vi** (١٣٨٠ – ١٤٢٢ م)، وملك إنجلترا هنري الخامس **Henry v** (١٤١٣- ١٤٢٢ م) لدراسة أحواله وتقديم تقرير عنه، وقد قام برحلتين متتاليتين وسجل رحلتيه في ثلاثة أجزاء، حيث جعل الجزء الأول من كتابه المسمى ((أسفار وسفارات)) عن رحلته الأولى عام (٨٠٤ هـ / ١٤٠١ م)، والجزء الثاني خصصه لتعداد الأماكن المقدسة وآثار القديسين وما يغلفها من قصص وأساطير، وأفرد الجزء الثالث للحديث عن مصر وبلاد الشام في رحلته الثانية عام (٨٢٣ هـ / ١٤٢٠ م)، وعرض فيه لقوة المماليك السياسية والعسكرية، ووصف المدن وأسوارها والقلاع والحصون، والطرق المؤدية إلى هذه البلاد، وكذلك الوسائل المساعدة للدخول إليها بسهولة ويسر، كما تناول الدولة المملوكية فتحدث عن قوة السلاطين وطريقة اغتيالهم وما يصاحب ذلك من حالات اضطراب الأمن، وتحدث كذلك عن الجيش المملوكي وتكوينه والتدريبات العسكرية محدداً مواطن القوة والضعف فيه، فكانت نظرته ذات سمة عسكرية بهدف تحقيق غرض معين[٥١].

---

(3) Callis,(L.), Memory of medieval women, new York, 1962, p. 52.

(4) فايز اسكندر، مصر في كتابات الرحالة الروس في القرن ١٥م، الإسكندرية، ١٩٨٨، ص ٤-٥.

(٥١) نقولا زيادة، رواد الشرق العربي، مجلة المقتطف، القاهرة، ١٩٤٣م، ص ١١٣-١١٤؛

Potvin ,(C.H.) , Oeuvres de Gillerbert de Lannoy , London , 1878 , pp. 1-44 , 99-112 , See also , Atiya, the latter crusades ,pp. 190 -192.

جاء الرحالة براتراندو لابروكيير **Bertrando de la broquiere** (٨٦٣ هـ / ١٤٣٢ م) إلى الشرق بتكليف من قبل دوق برجنديا فيليب الطيب **Good Philippe** (١٣٩٦ – ١٤٤٦ م) لعمل دراسات حربية لشواطئ بلاد الشام ومصر والدردنيل [٥٢]، وهذا ما أكده لابروكيير بنفسه في مقدمة كتابه حيث قال: "لقد كتبت هذه الرحلة لإثارة وجذب قلوب الرجال النبلاء الراغبين في رؤية العالم، وكذلك لإرضاء سيدى دوق برجنديا فيليب الطيب، أنا المواطن براتراندو لابروكيير المندوب المفوض السياسي من قبل الدوق لجمع الأحداث والمعلومات في كتاب صغير عن البلاد الواقعة وراء البحر لمن تحدثه نفسه من ملوك النصارى وأمرائها لغزو بيت المقدس وقيادة جيش مسلح إلى هناك"[٥٣]. وهو بذلك يعد أحد دعاة الحروب الصليبية في أوربا في تلك الفترة.

كذلك رحل الراهب جان جيرمان **Jean Jermein**(٨٥٧ هـ / ١٤٥٣ م) إلى الشرق بهدف عسكري، وذلك بطلب من الدوق فيليب الطيب دوق برجنديا الذي لعب دوراً نشطاً ورئيسياً طوال فترة حكمه، حيث كان منشغلاً بفكرة انتزاع مقبرة المسيح من أيدي المسلمين وإنقاذ المسيحيين بفلسطين منهم وخلال انتظاره للحملة التي كان يتمنى دائماً قيادتها قام بتوزيع الكثير من الصدقات في الأراضي المقدسة، كما اشترى مبنى في رام الله عهد بحراسته لرجال الدين الفرنسيسكان وقام باستخدامه كدار للضيافة لرجال الدين والرحالة، كما ساهم في نقل الأخشاب من البندقية إلى بيت لحم لإعادة بناء سقف كنيسة دير صهيون، ولم يكتف بذلك فقد كلف ذلك الأسقف جان جيرمان بتولي أسقفية الكنيسة في دير صهيون، والقيام بالتجول والرحلة في الأراضي المقدسة بصفة خاصة وبالدولة المملوكية بصفة عامة، وذلك للتعرف على جوانب القوة والضعف في الدولة وإعداد القوات المملوكية، وكذلك الفتوحات التي قام بها السلطان المملوكي الأشرف برسباي (٨٢٦ – ٨٤٢ هـ) (١٤٢٢- ١٤٣٨ م) لفتح

([52]) Schefer,(C.H.) , Le Voyage de la Saincte de Hierusalem , Paris , 1882 , pp. i – ii.

([53]) Wright , (T.) , Early travelers in Palestine , London , 1948 , p. 283.

قبرص، والسلطان الظاهر جقمق (٨٤٢ – ٨٥٧ هـ) (١٤٣٧ – ١٤٥٣ م) الذي فتح رودس، كما وصف استعدادات القوات التركية في المنطقة للاستعداد لتجهيز حملة صليبية جديدة بالاتفاق مع ملك فرنسا شارل السابع Charl vii (٨٢٦ -٨٦٦هـ) (١٤٢٢ – ١٤٦١ م) ودوق البندقية فرانشيسكو فوسكاري Francesco Foscari (٨٢٧-٨٦٢هـ) (١٤٢٣- ١٤٥٧ م)[٥٤]. هكذا لم تكن دوافع الورع والتقوى والرغبة في الحج وزيارة الأماكن المقدسة فقط هي التي قادت هؤلاء الرحالة في رحلتهم إلي الشرق.

هناك أيضا نوع من الرحالة سعى لحث البابا بروما وملوك أوربا لإرسال حملة صليبية إلى الشرق كدافع شخصي ولم يكن مفوضاً من قبل دوق أو ملك ما، مثلما فعل الرحالة مارينو سانوتو Marino Sanuto الذي كان يعمل عازفاً في كنائس البندقية، ثم مستشاراً في محكمة بالرمو وقد زار الشرق وتجول في البحر المتوسط خمس مرات زار فيها إيطاليا واليونان وأرمينيا وبلاد الشام ومصر، وأقام في الحي البندقي في عكا عام ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦ م، واستحوذت عليه فكرة القيام بحملة صليبية جديدة إلى الأرض المقدسة، وألف كتاباً خاصاً بذلك تناول فيه أوضاع الشرق في ذلك الوقت وطرق الإعداد للحملة، واستغرق ذلك منه ستة عشر عاما حتى أكمله عام ٧٢١ هـ / ١٣٢١ م وقدمه للحبر الأعظم البابا يوحنا الثاني والعشرون (٧١٥-٧٣٥هـ) (١٣١٦ – ١٣٣٤ م) [٥٥]. دفعه ذلك أن يقول بنفسه في مستهل كتابه للبابا

([54]) Germaine ,(J.) , Le Discours du Voyage de Oltremere au tres victoorieux roi Charles vii , R.O.L , tome 3 , Paris ,1895 , pp. 303- 308.

([٥٥]) نقولا زيادة، رواد الشرق، ص ١٠٤ – ١٠٥.

- البابا يوحنا الثانى والعشرين: اسمه الحقيقي اك ديزيه Jacque Duses ولد في عام ١٢٤٩مفى مدينة مونبيلية الفرنسية لأسرة ثرية وكان وده يملك ملت أحذية وقد درس يوحنا الطب في مونوبيلية والقانون في باريس واصح مساعد واعظ وأسقف في مدينة أفينون في ١٨مارس ١٣١٢م ومطرانا في مدينة سان فيتال في ٢٤ ديسمبر من نفس العام ثم راهبا في مدينة بوردو الفرنسية عام ١٣١٣م وانتخب خلفاً للبابا كليمنت الخامس في ٧ أغسطس ١٣١٦م ونصب في ليون في ٥ سبتمبر من نفس العام وفضل الإقامة في أفينون وتوفى في ديسمبر ١٣٣٤م. انظر، جمال فاروق، تطور استراتيجي

"أقدم لكم هذا العمل ولست مدفوعاً من قبل أي ملك أو أمير أو مجموعة أو أي شخص آخر على الإطلاق بل بإرادتي الحرة المطلقة، ففكرت في طريقة لإذلال وإبادة أهم وأقوى أعداء الإيمان المسيحي، وخاصة سلطان مصر وإمبراطور التتار العابثين في المناطق الجنوبية وسلطان الأتراك العثمانيين، ولتحقيق هذا الهدف عبرت البحر خمس مرات لأذهب تارة إلى قبرص وصولاً إلى أرمينية أو الإسكندرية ومرة إلى رودس، كما أقمت طويلاً في الإسكندرية وعكا وقد ظمئت نفسي إلى مثل هذا اليوم الذي نحقق فيه السيادة، وإعادة امتلاك الأراضي المقدسة"[٥٦].

شهد العصر المملوكي انتشار الجواسيس الأجانب في الديار المملوكية وذلك بسبب سوء العلاقات بين المماليك وبعض الدول الأجنبية نتيجة لعمليات القرصنة التي قام بها قراصنة أوربيون منذ سقوط عكا عام ٦٩٠ هـ / ١٢٩١ م حتى نهاية العصر المملوكي على سواحل البحر المتوسط، فمن الطبيعي أن ترسل تلك الدول جواسيسها وعيونها للاستطلاع، ومعرفة ما يدور داخل الأراضي المصرية والشامية من أحداث وظروف سياسية واقتصادية واجتماعية، لعلها تستفيد من تلك المعلومات في توجيه ضربة لمصر، ولا شك أن هؤلاء القناصل والتجار كانوا بمثابة خطر داخلي على الدولة لأنهم أكثر العناصر الأجنبية تردداً على الأسواق والمدن المصرية والشامية وأكثر استقرارًا في مصر نتيجة لطبيعة عملهم مما جعل لبعض الشخصيات الأوربية صلة مباشرة وعلاقات قوية بالسلاطين المماليك.

يهمنا هنا ما ورد على لسان الرحالة من أقوال تساعدنا في أن نستشف أنهم كانوا جواسيس وعيونا لبلادهم في مصر والشام وأهم هؤلاء الرحالة هو لودفيكو فارتيما LudvicoVarthema (٩٠٩ – ٩١٦ هـ) (١٥٠٣ – ١٥١٠ م)، أو كما سمي نفسه الحاج يونس المصري، حيث كانت رحلته جزءا من الجهود البرتغالية في

الحروب الصليبية في القرن الرابع عشر الميلادي، ماجستير غير منشور، آداب طنطا، ٢٠٠٦م، ص٥٦، حاشية (٢).

([٥٦]) مارينو سانوتو، كتاب الأسرار للمؤمنين بالصليب باسترجاع الأراضي المقدسة، ترجمة الأب سليم رزق الله، بيروت ١٩٩١م، ص ٥٤-٥٥

اكتشاف الطرق المؤدية إلى ثروات الشرق عامة والهند خاصة، وجهودهم كذلك لتطويق العالم الإسلامي، واستمرارا لما يسمونه حرب الاسترداد. وقد قدم فارتيما نفسه لأهل الحجاز واليمن وسكان الخليج العربي وبلاد فارس باعتباره الحاج يونس المصري وفي بلاد الهند باسم يونس الفارسي و أحيانا جعل نفسه درويشا صوفيا مما أتاح له الفرصة للتغلغل في المجتمع الإسلامي في الشرق[٥٧].

كشف فارتيما عن رغبته في معرفة ثمرات ومنتجات الشرق بقوله: "قررت شخصيا أن أرى بنفسي وعيني الثمار المختلفة والأشجار العطرية وأجناس الحيوانات والنبات في مصر وسوريا وصحراء شبه الجزيرة العربية وبلاد العرب السعيد وبلاد فارس والهند وإثيوبيا واضعاً في اعتباري أنه ليس من رأي كمن سمع ورغبت في تحقيق بعض التقدير والاحترام مثل السابقين، فقررت أن أتفقد هذا الطريق شاعراً برغبة عارمة لتحقيق الغايات نفسها، وهذا لن ينفع بالدراسة والاستنتاج ولكن بالبحث والمشاهدة والرحلة"، كما أكد الناقد والمؤرخ ياد جريان yadgrian بأن فاريتما كان رحالة إيطاليا، و عسكرياً نتيجة اهتمامه الكبير في رحلته بوصف الأسلحة والتجمعات العسكرية، وكذلك بسبب علاقته بالكونتيسة وزوجها البرتغالي، وهذا يعنى أنه إيطالي المولد ويعمل لحساب ملك البرتغال [٥٨].

سافر بعض الرحالة كذلك من أجل التخفيف عن نفسه نظراً لتعرضه لمصاعب وآلام ومحن وشدائد في حياته الخاصة، مثل السيدة مارجري كمب Margery Kemp (٨١٦ – ٨١٨ هـ) (١٤١٣– ١٤١٥م)، فقد تعرضت لظروف نفسية سيئة للغاية، حيث إنها كانت قد ارتكبت ذنباً في شبابها ولم تعترف به لأحد، ثم تزوجت وأنجبت طفلها الأول وحاولت الانتحار عدة مرات، كما اتهمتها الكنيسة بالهرطقة فكانت رغبتها في السفر إلى الأراضي المقدسة في أوربا والشرق بهدف

---

(٥٧) لود فيكو فارتيما، رحلات فارتيما (الحاج يونس المصري)، ترجمة عبد الرحمن الشيخ، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٤م، ص٩-١٠.

(٥٨) فارتيما، رحلة فارتيما، ص ١٠؛ ١٧.

التكفير عن الذنوب والحصول على الراحة النفسية والروحانية التي فقدتها، كما إنها تعرضت لظروف صحية صعبه بسبب عمليات الولادة المتكررة والتي جعلت الكثير من نساء أوربا يشعرن بنهاية أجلهن واقتراب الموت منهن بسبب عدم وجود أدوية تخفف آلامهن فوضعت في مصحة نفسية، ثم عادت لطبيعتها ومارست تجارة الخمور ولكنها لم تشعر بالاطمئنان والسلام الداخلي فحاولت الرهبنة والدخول في خدمة الكنيسة ولم تفلح في ذلك، فقررت القيام برحلة خاصة لطلب الغفران والحصول على السلام النفسي والإيمان الكامل[٥٩]، وكذلك نجد الرحالة الألماني مارتين بوم جارتن Martin Baumgarten (٩١٣ هـ / ١٥٠٧ م) والذي التحق بالجندية في سن السادسة والعشرين ثم تزوج وأنجب أبنتين، ولكنهما توفيتا في سن مبكر ثم توفيت زوجته في العام التالي وبذلك حرم من الزوجة والأولاد، وفى ذلك الوقت فكر في السفر لزيارة الأماكن المقدسة في بيت المقدس ومصر فنظر إلى الرحلة والسفر على أنها وسيلة للراحة واستعادة الاستقرار النفسي والعاطفي للتخفيف مما أصابه من آلام ومحن[٦٠].

كما جاء بعض الرحالة الآخرين إلى بيت المقدس وبلاد الشام عامة لتولى وظيفة رئيس دير أو كنيسة أو أسقفية كما كان في حالة الرحالة الراهب لودولف فون سوخم Loudolph von suchim (٧٣٧– ٧٤٢ هـ) (١٣٣٦ – ١٣٤١م) والذي عاش في بيت المقدس لمدة خمس سنوات وذلك بموجب أمر تعيينه أسقفا في دير جبل صهيون مما جعل كتاباته تتميز بالدقة والصراحة والقدرة على التعبير الواقعي عند سرد الأحداث ووصف العادات والتقاليد ووصف الأرض المقدسة بدقة[٦١].

([59]) Skinner,(J.),The book of Margery Kemp , New York , 1998,chaptr,26 , Marty,(W.), and Echols,(A.) Between pit and pedestal ,Women in the middle ages,Prinston ,1994,pp.41- 45.

([60]) Baumgarten , (M.) , The Travel of Martin Baumgarten through Egypt , Syria , Palestine ,London , N.D, p. 426.

([61]) Ludolph Von Suchem , Description of the Holy land and the way thither

كذلك الرحالة الراهب الأب فرانسيسكو سوريانو Fra Fransesco Soriano الذي أرسل إلى الأرض المقدسة من عام ٨٨٦ هـ/ ١٤٨١ م إلي٩٢١ هـ / ١٥١٥ م، ولكن على فترات متفاوتة وعاش في بيروت من عام (٨٨٦هـ إلي ٨٩٤ هـ) (عام ١٤٨١ إلى ١٤٨٨ م)، وعمل في دير الرهبنة من أجل مساعدة عدد كبير من التجار للعودة إلى الدين حيث تعرض المسيحيون في ذلك الوقت إلى غضب المسلمين وأصبحوا أسرى وعبيد، وتحولوا عن المسيحية وكان هو الأمل الوحيد لاستعادة هؤلاء المسيحيين وبالفعل استطاع دير الفرنسيسكان في بيروت أن يقوم بتلك المهمة فضلاً على معرفة الأب سوريانو باللغة العربية أيضاً[٦٢].

وفد آخرون إلى مصر والشام بهدف السفارة من قبل ملك ما مع اختلاف أهداف السفارات ولكن أهم تلك السفارات هي ما جاءت بهدف تجاري وتحسين العلاقات التجارية بين الدولة المملوكية والدول الأخرى أو الحصول على حقوق وامتيازات تجارية جديدة، فقد تمتعت مصر والشام بكثير من الخيرات وسارعت المدن الإيطالية على سبيل المثال ببذل الجهود من أجل الحصول على امتيازات خاصة في الموانئ المصرية والشامية منذ عصر الحروب الصليبية وحتى بعد انتهائها الأمر، الذي أتاح لهم التحكم في الطرق التجارية بين الشرق والغرب فضلاً عن تسويق منتجات الشرق في أوربا وتسهيل عملية التبادل التجاري بين قارات العالم القديم.

جاء إلى مصر السفير فيليس برانكاشي Felice Brancacci (٨٢٦ هـ / ١٤٢٢ م) والذي كان يشغل منصباً هاماً في جمهورية فلورنسا الإيطالية، فأرسله مجلس الشيوخ إلى السلطان برسباى (٨٢٥ –٨٤١ هـ) (١٤٢٢- ١٤٣٨م) بصفته سفيراً لبلاده ليطلب لبلده فلورنسا نفس الحقوق التجارية التي منحها السلطان للجمهوريات الإيطالية الأخرى مثل جنوه والبندقية وذلك بعد أن انتهت فلورنسا من مشاكلها الداخلية والتي كانت سبباً في انقطاع تعاملها مع الدولة المملوكية[٦٣].

, translated by Aburrey Stewart , London , 1895, pp.1-2.

(62) Souriano ,(F.) , Treaties on the holy Land , translated by Fr.Theophilus Bellorini , Jerusalem , 1948 , p.2.

(63) Dopp (P.H) , Le Caire vu par les Voyageures Occidentaux du moyen age, Le Caire , tome 24 , 1950 , p.123.

كذلك السفير دومينيكو تريفيزاني Domenico Trevisani (٩١٨ هـ / ١٥١٢ م) المفوض من قبل حكومة البندقية إلى السلطان قنصوه الغورى (٩٠٦ -٩٢٢ هـ) (١٥٠١– ١٥١٦ م) من أجل إعادة تسوية العلاقات المتردية بين سلطنة المماليك والبندقية بسبب ارتفاع أسعار التوابل في المواني المصرية والشامية بطريقة مبالغ فيها، لدرجة أن بعض السفن البندقية كانت تأتى وترحل دون تحميل أو شحن، وكذلك عرض الشكاوى التي قدمها التجار بالبندقية بسبب سوء معاملة الموظفين المماليك في الجمرك، وكان عليه أيضاً الحصول على موافقة السلطان بهدف إعادة الرهبان اللاتين إلى أديرتهم في فلسطين، وتأمين حماية الحجاج المسافرين إلى الأراضي المقدسة، وخاصة بعد أن شك السلطان الغورى في أن مجلس الشيوخ والقناصل البنادقة يتعاونون مع الشاه إسماعيل الصفوى شاه إيران (٨٩٢ – ٩٣٠ هـ) (١٤٨٧ – ١٥٢٤ م) ضد الدولة المملوكية[٦٤].

أضف إلي ذلك من جاء تاجراً يتجول في الشرق للبيع والشراء وفى نفس الوقت كان داعياً لحملة عسكرية مثل التاجر بيلوتي الكريتي Piloti de crete الذي عاش في الشرق خمسا وثلاثين عاماً متجولاً بين قبرص وكريت والإسكندرية والقاهرة واحتوى كتابه الذي قدمه للبابا عام ٨٣١ هـ / ١٤٢٧ م على معلومات اقتصادية هامة، مما يجعله نافعاً للباحث في التاريخ الاقتصادي في تلك العصور، كما أنه يشرح الشروط والصفات الواجب اجتماعها في قائد الحملة الصليبية ويشير كذلك إلى ضرورة توجيه حملة ضد مصر لا ضد فلسطين، فالطريق الوحيد لإضعاف سيطرة السلطان المملوكي وتدمير قوة المسلمين لا تتم إلا بالاستيلاء علي القاهرة. كما وصف الطرق المؤدية إلى القاهرة والإسكندرية وصفاً دقيقاً كأنه مرشد للقوات الأوربية[٦٥]، وأما عن سبب تأليفه لذلك الكتاب ودعوته للحملة الصليبية ضد مصر

)[64] (Schefer , (C.H.) , Le Voyage de Jean Thenaud et Dominico Trevisani , Paris , 1864 , pp.147-150.

([٦٥]) نقولا زيادة، رواد الشرق، ص ١١٦- ١١٧؛ أحمد دراج، تاريخ العلاقات بين المماليك والفرنج في القرن ١٥ م، دار الفكر العربي، ١٩٩٠م، ص ٢٠٤.

فهو أنه رأي بنفسه مائتين من الأسرى الأوربيين أرسلهم سلطان الأتراك العثمانيين "بايزيد بن مراد خان" (٧٩٢ – ٨٠٦ هـ) (١٣٦٠ – ١٤٠٣ م) هدية إلى السلطان المملوكي الظاهر سيف الدين برقوق أثناء توليه السلطة للمرة الثانية (٧٩٢ – ٨٠١ هـ) (١٣٩٠ -١٣٩٩ م) بعد انتصاره في معركة نيكو بوليس Nicopolis عام ٧٩٨ هـ / ١٣٩٦ م وقد آلمه تحولهم إلى الإسلام وسوء أحوالهم وما تلا ذلك من سقوط لمملكة قبرص عام ٨٣١ هـ / ١٤٢٧ م، وأسر ملكها جانوس Janus (١٣٩٨ – ١٤٣٢ م) فلم يستطع بيلوتى السكوت عن ذلك الوضع، فأرسل إلى البابا يرجوه أن يخطط لحملة على الشرق من أجل منفعة المسيحيين[٦٦].

وهناك من سافر وتجول وتعرض لمخاطر عديدة من أجل النزهة والتجول ومن أجل كتابة ما شاهدوه وما سمعوه فجاءت مؤلفاتهم مليئة بوصف للمدن والقرى والقلاع والسهول والجبال والأنهار في تلك البلاد، وكتبوا عن الاقتصاد والسكان

)[66] (Atiya the latter crusades, , pp. 208-29 .

- بايزيد بن مراد خان: هو بايزيد خان بن مراد بن أروخان بن عثمان الغازي سلطان الروم، ولد سنة ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م، وجلس علي العرش سنة ٧٩٢ هـ / ١٣٦٠ م، وفتح كثير من بلاد أوربا واستولي علي من كان بالروم من ملوك الطوائف، وخرج علي تيمور لنك، وانتصر عليه ولكن جيش تيمور استطاع الالتفاف حوله والقوا عليه بساطا وامسكوه وحبسوه فمات كمدا في الأسر سنة ٨٠٦ هـ / ١٤٠٣ م، انظر، الشوكاني، محمد بن علي، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، تحقيق خليل المنصور، ج١، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م، ص ١٠٩؛ إبراهيم بك حليم، التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية، تحقيق نجوي عباس، ط١، مؤسسة المختار، القاهرة، ٢٠٠٤ م، ص ٧١ – ٧٤.

- معركة نيكوبوليس: وقعت في مدينة نيكوبوليس شمال البلقان حيث تجمعت جيوش الدول الأوربية من فرنسا وانجلترا ألمانيا واسكتلندا وسويسرا والمجر وغيرهم لتكوين حملة عسكرية موجهة ضد الدولة العثمانية بدعوة من سيسجموند ملك المجر والبابا بونيفاس التاسع وحاصروا المدينة = وانتصروا علي القوات العثمانية في بادئ الأمر ثم ما لبث أن ظهر بايزيد وحقق نصرا عظيما عليهم وخرج العثمانيون من المعركة بغنائم كثيرة واسر بعض ملوك وقادة الجيوش الأوربية وهرب ملك المجر واتخذ بايزيد لقب سلطان الروم؛ انظر، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، الأنجلو المصرية، ١٩٦٣ م، ص ١٢٥٠ – ١٢٥٢؛ محمد أنيس، الدولة العثمانية والشرق العربي (١٥١٤ – ١٩١٤ م)، القاهرة، ١٩٧٧ م، ص ٣٦ -٣٩.

والحياة السياسية والتطور العمراني للمدن والموانئ، وعادات وتقاليد الشعوب، كما قدموا وصفاً جغرافياً للبلاد والطرق فكانت رغبتهم الأساسية هي التجول والتنزه ووضع مؤلفات إرشادية لمن يفكر في السفر إلى الأرض المقدسة، مثل الرحالة الألماني أرنولد فون هارف Arnold von harff (٩٠٢ – ٩٠٥ هـ) (١٤٩٦ – ١٤٩٩ م)، ويوحنا منديفيل الإنجليزيJohn de mandevil (٧٢٢ – ٧٥٧ هـ) (١٣٢٢- ١٣٥٦ م)، والرحالة اليهود الثلاثة إسحاق بن يوسف بن شلو الإسبانيIsaac Ben Joseph chelo (٧٣٥ هـ / ١٣٤٤ م)، و عوبديا برتينورو الإيطاليObadiah de Bertrinoro (٨٩٣ – ٨٩٦ هـ) (١٤٨٧ – ١٤٩٠ م)، وميشولم بن مناحم الإيطالي Rabbi meshullom (٨٨٦ هـ - ١٤٨١ م)، و بيترو كازولاPetro casalo الإيطالي (٩٠٠ هـ / ١٤٩٤ م)، و الفرنسى أنطوان دي كريمون Anton de cremon (٧٢٨- ٧٣١ هـ) (١٣٢٧ – ١٣٣٠ م)، ويوحنا بولونير الألماني John poloner (٧٢١ هـ / ١٤٢١ م)، و ليوناردوفريسكو بالدى الإيطالي leonardo Frescabaldi (٧٨٦ هـ / ١٣٨٤ م)، و بيرو طافور الإسباني Pero tafour (٧٤٩ – ٨٤٣ هـ) (١٤٣٥ -٤٣٩ م) وغيرهم كثيرون[٦٧].

- طرق السفر والرحلات من الغرب إلى الشرق:

سافر الرحالة الأوربيون من الغرب إلى الشرق بطرق عديدة ومتنوعة، ولكن أهمها كان طريق البحر المتوسط حيث اعتاد الرحالة القادمون من إنجلترا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا المجيء إلى موانيء البندقية وجنوه وبيزه ومرسيليا براً داخل حدود بلادهم حتى الوصول إلى تلك الموانئ، والتي كانت تعد أهم وأقوى وأفضل موانئ البحر المتوسط في أوربا، وهى الأماكن التي كان يقصدها الحجاج والرحالة المسافرون بحراً من أوربا إلى الشرق. [٦٨] وكانت مدينة البندقية تعد أفضل وأهم المدن الإيطالية على الإطلاق ويمكن السفر من خلالها ولذلك كان طريق البندقية -

---

([٦٧]) نقولا زيادة، رواد الشرق، ص ١١٧-١٢١، Dopp ,Le Caire, tome 23, 24.

([٦٨]) نقولا زيادة، رواد الشرق العربى، ص ٤٢-٤٣.

يافا- الإسكندرية أقصر الطرق وأفضلها. [٦٩]

وقد سافر الرحالة السير جون منديفيل sir Johan mandievel منذ عام (٧٢٢ – ٧٥٧ هـ) (١٣٢٢- ١٣٥٦ م) من إنجلترا إلى الشرق عن طريق إنجلترا إلي بلغاريا ثم إلى القسطنطينية برا وإلي رودس ثم قبرص بحراً ومنها اتجه إلى بيت المقدس عن طريق البحر وذكر "أنه يمكن السفر مباشرة من قبرص إلى يافا للوصول إلى بيت المقدس في مدة تستغرق حوالي يوم ونصف"[٧٠]، كما سافر الراهب فيلكس فابري Felix Fabri ٨٨٩ هـ / ١٤٨٤ م من مدينة أولم Olm في ألمانيا إلى البندقية براً ماراً بجبال الألب، ثم سافر بحراً إلى كورفو وكريت وقبرص حتى وصل إلى يافا [٧١]. وكذلك سافر الرحالة بيترو كازولا Piettro Casola ٩٠٠هـ/١٤٩٤م من موطنه الأصلي ميلان في إيطاليا إلى مدينة البندقية عبر الطريق البرى ومنها ركب السفينة وعبر البحر الأدرياتيك حتى وصل إلى راجوزا وكورفو ثم رودس وقبرص ومنها اتجه إلى يافا [٧٢].

يمكن للإنسان أن يسافر بالطريق البري الهنغاري الأناضولي الذي يمر بهنغاريا (المجر) وبلغاريا إلى القسطنطينية ماراً بتركيا وإذا كان السفر عبر القسطنطينية آمناً يمكن أن يصل إلى قبرص أو رودس بسلام. أما إذا أراد السفر بحراً من القسطنطينية فيجب أن يصل أولاً إلى قبرص ثم يكمل الرحلة بحراً إلى يافا أو إلى عكا. وكذلك يمكن السفر بالطريق البحري من البندقية أو مرسيليا إلى موانئ يافا وعكا والإسكندرية.[٧٣] أما السيدة مارجرى كمب Margery Kemp فقد سافرت من مدينة لاين Lyan في إنجلترا إلى هولندا وألمانيا متبعة نهر الراين ثم توقفت عند مدينة

([69]) London , 1930 , p.243. Adler, (E.) , Jewish Travelers, 1 ed

([70]) Wright, Early Travellers , pp. 139-142.

([71]) Fabri , (F.) , The book of the Wandering of Felix Fabri , trans. by Aburey Stewart , London , 1896. vol 1.part 1 , pp.57- 86 ، أنظر الخريطة رقم (٢).

([72]) أنظر الخريطة رقم (١).

([73]) Ludolph, Description of the Holy land, pp 7-8.

البندقية عدة شهور لحضور السفينة التي تنقل الحجاج إلى بيت المقدس ورحلت بها السفينة بطول شاطئ دلماتيك ثم اتجهت للغرب ناحية الأرخبيل اليوناني وكريت ورودس وقبرص حتى وصلت إلى يافا الميناء الرئيسي لمدينة بيت المقدس[٧٤].

ويمكن السفر طوال الرحلة بالطريق البحري فقط مثلما فعل الرحالة بيرو طافور (٧٤٩ – ٨٤٣ هـ) (١٤٣٥ -١٤٣٩ م)،حيث سافر من البرتغال إلى إسبانيا وعبر جبل طارق إلى ميناء طنجة المغربية، ثم دفعته الريح إلى شطر سردينيا، فاتجه إلى جنوه والبندقية ومنها إلى القسطنطينية، ثم إلى يافا بحراً[٧٥].

أما رحلة جلبيرت دى لانوي **Gilhebert de lanoy** (٨٢٥ هـ / ١٤٢١ م) فقد رحل من كافا في شبه جزيرة القرم ومنها بحراً إلى القسطنطينية ورودس وكندا (كريت) فالإسكندرية ثم سار إلى رشيد ومنها إلى القاهرة عبر النيل وبعد مشاهدة ديري القديسيين أنطونيوس وبولس في الصحراء الغربية أبحر ثانية في النيل إلى دمياط ومنها بحراً إلى فلسطين ثم عاد إلى البندقية بطريق رودس[٧٦].

- مخاطر السفر عبر البروالبحر:-

تعرض الرحالة والمسافرون في البحر والبر لمصاعب ومخاطر عديدة مثل العواصف والرياح القوية التي هددت سفنهم في عرض البحر، ويبدوا أنها كان لها النصيب الأكبر من الخطر الذي أحدق بهم، بالإضافة إلى الهجمات التي كان يتعرض لها الحجاج من قبل القراصنة المسيحيين والمسلمين، وفيما يلي عرض لأهم تلك الأخطار: -

أولاً: مخاطر السفر عبر البحر وأهمها، خطر العواصف العنيفة في البحر وهى العواصف القوية والصعبة التي تؤدى إلى الفزع والرعب مثل الرياح الشديدة جداً والتي يطلق عليها البحارة اسم الغولف Gulph ، وهى رياح تمر عبر الفجوات

---

(٧٤) انظر الخريطة رقم (٣).

(٧٥) بيرو طافور، رحلة بيرو طافور في عالم القرن ١٥ م، ترجمة حسن حبشي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٨م، ص ١-١٠.

(76) Potvin, Oeuvres de Gilberrt ,pp.1-48.

في الجبال ولا تؤذي أحد ما لم تكن السفينة قريبة جداً، ففي عام ٧٤٢ هـ / ١٣٤١ م كان الرحالة لودولف **Ludolph** مسافراً من الشرق نحو جبال أضاليا بسهولة ويسر وفجأة هبت رياح الغولف فقذفت بالسفينة وأشرعتها وسارت السفينة وهى مائلة لمسافة طويلة حتى هدأت الرياح. (٧٧) وما حدث مع الرحالة فيلكس فابري **Felix Fabri** عام ٨٨٩ هـ / ١٤٨٤ م حيث هبت رياح شديدة وعنيفة مضادة بشكل مفاجئ فأدي ذلك إلى جنوح السفينة، وكان من المحتمل غرقها في قاع البحر وقد أحدث ذلك رعباً وخوفاً شديداً بين الحجاج على ظهر السفينة. (٧٨)

كان الرحالة عوبديا**Obadiah de Bertrinoro** قد وفد إلى الإسكندرية عام ٨٩٣ هـ/ ١٤٨٧ م وذكر أنه قبل دخول ميناء الإسكندرية هبت رياح عارمة قوية في منتصف الليل، وتحطم أثنان من مراسي السفينة وبدا على البحارة الخوف والفزع، وألقوا بالأمتعة في الماء لتخفيف حمولة السفينة وحاولوا إعلام بعض السفن المارة لطلب المساعدة، فلم يساعدهم أحد واستمرت الأمواج تتقاذف بالسفينة وتبعدها عن الميناء.(٧٩) ويرجع السبب في تحطم السفينة إلي عدم كفاءتها وضعفها فأحياناً تكون السفينة صغيرة جداً أو ضعيفة وقديمة فتمتلئ بالماء من كل جانب وتصبح غير آمنة، ويسهل تدميرها وغرقها مع وجود العواصف الشديدة.(٨٠)، أما النوع الثاني من الرياح يسمى غروب Grupوتنشأ عند التقاء رياح معاكسة مما يؤدي إلى تلقى السفينة ضربات عديدة من جهات متعاكسة.(٨١).

بالإضافة إلى أن البحر يكون مليئاً بالصخور والنتوءات في بعض الأماكن قرب اليونان وقبرص فلا يمكن الإبحار ليلاً بسبب الصخور والرؤوس، أو يكون قاع

---

(77) Ludolph, Description of the Holy land , p.13.

(78) Fabri , The book of the Wandering ,vol 1.part 1, p.123.

(79) Adler , Jewish Travelers , p.219.

(80) Adler, Jewish Travelers,p.219, Fabri, The book of the Wandering ,vol 1 part 1,p123,Casola, (C.P.), Canon Petro Casola Pilgrimage to Jerusalem , trans. by M. Margaret Newett , Manchester, 1907. p.181.

(81) Loudolph, Description of the Holy land , p. 14 , Fabri , op.cit , vol 1 part 1 , p. 125.

البحر غير مستو بمعني أنه مرتفع في أحد الأماكن وعميق في مكان آخر، وذلك كان يجعل السفينة عندما تصل إلى مكان غير مستوى تتوقف ولا تستطيع الحركة ما لم يكن هناك رياح قوية تدفعها لتتابع سيرها[٨٢].

هذا إلي جانب خطر القراصنة ولصوص البحر الذين يهاجمون السفن ويتعرضون للركاب بالتهديد والقتل من قبل القراصنة المسيحيين القبارصة والقطلان و هؤلاء القراصنة يستطيعون الاختفاء بطرق عديدة ليفعلوا ما يريدونه بدون أن يشعر بهم أحد ومنذ القرن الخامس الهجري /الحادي عشر الميلادي، اشتكى البيازنة والجنوية واليونانيون والمسلمون من القراصنة وتعرضت البضائع والسلع والناس للسرقة والنهب والأسر وافتداء المسافرين.[٨٣] وقد تعرض الرحالة بيترو كازولا أثناء سفره لخطر القراصنة الأتراك العثمانيين واعتراضهم لسفن رودس قرب ميناء رودس في البحر المتوسط [٨٤]

([82]) Fabri , The book of the Wandering , p.116.

([83]) Ludolph,op.cit ,p.14 , See Also , Vredan , (J.) , Travel in the Middle ages , trans. By Gearge Holoch ,Noterdam ,2003 ,pp.63-64.

- القطلان أو الكيتلان: وهم سكان إمارة كتالونيا أو قطالونيا التي تقع شمال شرق إسبانيا وكانت إمارة مسيحية خاضعة للسيطرة الفرنسية سياسيا، و سعي حكامها إلي توسيعها وقاموا بمساعدة أمراء إسبانيا النصارى في حروبهم ضد المسلمين بناء علي دعوة البابا والتي سيمت في ذلك الوقت بحركة الاسترداد، ثم اتحدت مع مملكة أراجون الإسبانية عام ١١٣٧ م، و بعد سقوط عكا في أيدي المسلمين شجع حكام قطالوينا الشعب بممارسة القرصنة البحرية ضد السفن الإسلامية في البحر المتوسط، والإغارة علي الشواطئ المصرية والشامية، باعتبار أنهم أحد حماة النصرانية، وهكذا اتصفت العلاقات بين الكيتلان والمسلمين بالطابع العدائي، وفي نفس الوقت كانت مصر تقدم المساعدات للممالك الإسلامية في الأندلس ودائما تهدد العالم المسيحي بإغلاق الأماكن المقدسة بالقدس وسانت كاترين، لإرغام الكيتلان علي كف أذاهم عن المسلمين، ورغم ذلك كان تجار قطالونيا يمتلكون فندقا في مصر لممارسة التجارة، وتلك فترات قصيرة فسرعان ما تسوء العلاقات ويقل عدد التجار الكيتلان في الفندق، أنظر: محمد محمود النشار، علاقة مملكتي قشتالة وأراجون بسلطنة المماليك، دار عين، القاهرة، ط ١، ١٩٩٧ م، ص ٣٠ -٣٥؛ حسين النحال، دولة المماليك ودول البحر المتوسط، ماجستير غير منشور، آداب الزقازيق، ١٩٨٧ م، ص ٣٩ – ٤١.

([84]) Casola, Pilgrimage to Jerusalem, p. 200.

حدث أثناء رحلة أحد الرحالة أنه عندما وصل إلى البندقية، توقفت السفينة عند مدينة بارنزو Parenzo في فالونا valona ، وكانت السفن والبواخر التركية تشق مياه الأدرياتيك واستولت على السفن المسيحية وقامت بتعذيب الركاب، وقد نصحهم البعض بالعودة إلى البندقية وعدم استكمال الرحلة إلى الشرق، أو البقاء في أي مياه حتى تتحسن الأوضاع فدب الذعر والخوف والرعب الشديد في نفوس المسافرين خوفاً من القراصنة الأتراك[٨٥].

ثانيا: مخاطر السفر عبر البر، حيث تعرض الرحالة أيضاً إلى أخطار ومصاعب داخلية في مصر والشام، تمثلت في خطر العربان وقطاع الطرق واللصوص، ودائماً ما تعرض العربان للقوافل المسافرة في الصحراء يطالبونهم بالمال وإذا لم يحصلوا عليه يقومون بضرب وجرح المسافرين وسرقة ما يجدونه معهم والهرب بسهولة بالغنيمة [٨٦] هؤلاء العربان كانوا ينتظرون على الطريق متخفين في الرمال لعدة أيام، ويستطيعون مشاهدة المسافرين في الطرق والممرات دون أن يراهم أحد، وعندما كانوا يشاهدون قافلة صغيرة العدد يهاجمونها ويستولون على ما فيها من الخيول والملابس والأموال والبضائع والسلع [٨٧]، وقد تعرض الرحالة نيكولو بوجيبونسي **nicolo poggobonsi** (٧٤٧ – ٧٠١ هـ) (١٣٤٦ – ٣٥٠ م) لخطر هؤلاء العربان في صحراء سيناء، ومنعوا القافلة من السير في الطريق بحجة أنهم جواسيس أجانب، ورغم أن المترجم قد قدم لهم خطاب الأمان من السلطان ولكنهم لم يقتنعوا به، واضطر المترجم إلى العودة إلى القاهرة لإثبات صحة الخطاب مع أحد العربان، وبعد عبور البحر الأحمر تعرض لهم مجموعة أخرى بالإيذاء والسب حتى قدموا لهم المال الذي طلبوه [٨٨].

كما تعرض المسافرون للخطف من أجل المال أيضاً، فعندما وصل بعض

([85]) Schefer ,Le Voyage de Sincte de Hierusalem , pp.vi-xxxvi.

([86]) R.B , Two Journey to Jerusalem , London , 1685 , p. 22.

([87]) Adler, Jewish Travellers , p.182.

([88]) Nicolo of Poggibosi (1346-1350) , A voyage Beyond the seas , Jerusalem , the Franciseen Pres , 1945 , pp. 101-103.

الرحالة إلى نهر الأردن، وجدوا مجموعة من اللصوص العربان واقفين على الشاطئ، والبعض الآخر في وسط النهر حيث كانت المياه قليلة وضحلة وهم يحملون الرماح والسيوف، وأضطر الجميع إلى دفع ٣ **maydins** (دراهم)[٨٩] فسمحوا لهم بعبور النهر ولكنهم لم يكتفوا بذلك فرحلوا وراءهم وخطفوا اثنين من الرحالة لابتزاز مزيد من الأموال[٩٠]، وأحيانًا كان العربان يتفقون مع المترجم والمرشد لابتزاز الرحالة الأجانب، للحصول على الأموال، ففي عام ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ م عندما سافر فريسكو بالدي **Frescobaldi** ورفاقه إلى بيت المقدس عن طريق غزة وصحراء سيناء، قابل عددا من العربان على الخيول وآخرين مشاة استولوا على بعض أمتعة المسافرين، ثم طالبوهم بدفع "فدية حوالي ١٥ دوكة ذهبية مقابل إعادة ما سلبوه منهم"، وقد تبين أن المترجم قد أرسل شخصاً إلى العربان في الصحراء يخبرهم بالقافلة ليقوموا بالهجوم عليها، والدليل على ذلك أن الأموال التي سلبوها قد تم توزيعها على المترجم وسائقي الجمال واللصوص[٩١].

أما الرحالة براترندو لابروكيير Bertrando de la broquiere ٨٦٣ هـ / ١٤٣٢ م فقد استطاع الدليل أن يستغله ويحصل منه على أموال أخري، واضطر لدفع ١٢ دوكة ذهبية أخرى، بالإضافة للأجرة السابقة ليعيد توصيله إلى الناصرة ولكنه بعد أن أخذ المال تخلى عنه وتركه مع المكاري دون تنفيذ ما وعده به[٩٢].

كما تعرض الراهب الرحالة نيكولو بوجيبونسي nicolo poggobonsi لضغط

---

(89) maydins: يقصد بها الدراهم الفضية في العصر المملوكي انظر: Souraino, Treaties on the holy Land , p. 35 , note (e).

(90) Baumgarten , The Travel of Martin Baumgarten , p.474.

(91) Frescobaldi , Gucci , Sigoli , Avist to the Holy Places , trans. by Theophilus Bellorini , Jerusalem , 1948 , pp.65-66, 121.

- الدوكة الذهبية: تنسب إلي مدينة البندقية التي ضربت بها وقد انتشر تداولها في بلاد الشرق منذ عام ٨٠٦ م، انظر: رأفت النبراوي، العملات والنقود الصليبية، القاهرة، ١٩٩٨ م، حاشية (٣٤١)، ص ١٣٨.

(92) Wright , Early Travelers , p.299.

وقسوة حاكم أورشليم، حيث طلب منه الحاكم جزية للسلطان،ولكن الرهبان لم يكن معهم أموال كافية فصاح الحاكم وهاج وتحدث بشدة مع المترجم، وأحس نيكولو أنه سيتعرض للموت وبالفعل أمر أحد رجاله بضرب الرحالة، وحدثت مشادة بين المترجم والرحالة والوالي، وحبس الآخرين وحاول نيكولو التصرف، حيث قابل صديقا قبرصيا مسيحيا أخذ منه المال ودفعه للوالي(٩٣).

كما نظر المسلمون بصفة عامة للأجانب نظرة شك وريبة، وكثيراً ما ظنوا أنهم جواسيس لملوكهم فكانوا يتشددون في معاملتهم ويعاملونهم بقسوة وعنف تنتهي إلى السجن، كما حدث مع الرحالة فون هارف von harff، عندما دخل غزة فقبض عليه حاكم المدينة وعلى زملائه في الرحلة وسجنهم جميعاً في السجن وقيدهم بالسلاسل الحديدية لمدة ثلاثة أسابيع بدون سبب واضح، واضطر التجار الأجانب والحجاج إلى جمع المال اللازم لفداء السجناء. (٩٤)، وحدث نفس الفعل مع الرحالة بيتروكازولا petro casola حيث قام حاكم بيت المقدس بالقبض على ستة من الحجاج كانوا في مستشفى القديس يوحنا ووضعهم في السجن، ثم نجح رئيس دير صهيون وبعض الحجاج الأغنياء في دفع المال اللازم لإطلاق سراح السجناء، وعندما سأل كازولا Casola عن سبب القبض عليهم، أخبره أحد الأطباء اليهود وهو من أصل إيطالي، أن السبب فيما حدث يعود إلى خوف المسلمين من الجواسيس، لأنه منذ عامين زار بعض الحجاج نهر الأردن وتجسسوا على المكان وتحدثوا في مسألة عودة الأرض المقدسة إلى أيدي المسيحيين، ولهذا السبب خاف الحاكم من الرحالة وقبض عليهم وأضطر الجميع لدفع فدية عن السجناء وتم الإفراج عنهم بعد سجنهم بأربعة أيام فقط، وهذا دليل واضح على محاولة الحاكم ابتزاز الأموال من الحجاج وليس خوفاً من كونهم جواسيس(٩٥).

---

(93) Nicolo, A voyage Beyond the seas , p.8.

(94) Harff , (A.V.) , The Pilgrimage of Arnold Von Harff , trans by Letts Malcolm , London , 1946 , p. 185.

(95) Casola, Pilgrimage to Jerusalem , pp. 271-275.

كما كانت الحامية المملوكية تستغل الوضع لسرقة المسافرين، فذكر الراهب فيلكس فابري **filx fabri** أنه أثناء تجوله مع الحجاج في الأراضي المقدسة قدمت إليهم جماعة من المماليك المسلمين لحماية الحجاج من اللصوص والعربان، ولكنهم جمعوا الحجاج كلهم وسلبوا أمتعتهم وملابسهم ثم تركوهم دون حماية.[٩٦] وقد تعرض الراهب فيلكس فابري لمشاكل عديدة ومتاعب أخرى من الربان وعبيد المركب وسوء معاملة في الموانىء التى يمرون بها وكثرة التكاليف التي يدفعها الحجاج، ولذلك وضع اتفاقية مع الربان لتحقيق الأمان للحجاج المسافرين إلى الأراضي المقدسة ولا تعطى الفرصة للربان باستغلالهم ويجب اتباعها لحمايتهم من الاستغلال[٩٧].

- أنواع السفن المستخدمة في الرحلة:

تطورت حركة الملاحة الإيطالية في البحر المتوسط بعد أن عرف الإيطاليون البوصلة أواخر القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي، إلا أنهم لم يستخدموها في البحر المتوسط إلا في منتصف القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي، وأحدث استخدام البوصلة تطوراً كبيراً في عالم الملاحة والتجارة في الحوض الشرقي للبحر المتوسط بالنسبة للمدن الإيطالية فبعد أن اعتمد الملاحون الإيطاليون على الشمس والنجوم لتحديد الاتجاهات الأربعة أصبحوا يعتمدون على البوصلة، وأدى ذلك إلى زيادة حركة الملاحة والتنقل بين الشرق والغرب، بحيث أصبحت الأساطيل الإيطالية تقوم بأكثر من رحلة في السنة. [٩٨]، و بلغت الملاحة في المدن الإيطالية ذروتها عندما استخدم الملاحون الإيطاليون الخرائط الجغرافية البحرية التي رسموها ومكنت الملاحين من تحديد اتجاه السفن ومحطاتها البحرية من جهة وزيادة سرعة السفن من جهة أخري وتطورت أيضا في حجمها وشكلها[٩٩].

كانت البندقية أفضل المدن في البحر المتوسط لصناعة السفن، حيث كان بها

([96]) Ibid , p. 242 , Fabri , The book of the Wandering , p.247.

([٩٧]) ملحق رقم (١).

([98]) Lane , (E.) , The Economic Meaning of the Invention of the compass , London ,1963 , pp. 606-607.

([99]) Ibid ,pp.610 -614.

ترسانة لصنع أجود وأقوى السفن، وكل الأنواع المستخدمة بحيث يستطيع الركاب اختبار نوع السفينة وركوبها بسهولة ويسر، مع وجود أفضل بحارة يقومون بمساعدة المسافرين في التحميل والركوب، وتغيير المال وإعطاء صك الأمان والإذن بالرحيل، وكانت البندقية منذ القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي قوية ومنظمة، وكانت تنظم وتحدد مواعيد السفر والرحلات و خاصة في وقت الحروب الصليبية حيث اعتمد الصليبيون علي السفن البندقية بشكل أساسي في نقل الجنود إلي بلاد الشام، وفي وقت الحروب بين البندقية وتركيا كان لابد من وجود حراسة لحماية السفن، ولذلك لم تنقطع الحراسة عن السفن في البحر المتوسط كما حرمت أخذ ركاب على سطح السفينة أو بضائع أكثر من احتياجاتها لحماية السفن من الغرق[١٠٠].

تغيرت السفن في أشكالها وأحجامها وحمولتها خلال فترة العصور الوسطي، وفقاً لاستخدامها في نقل المسافرين والبضائع والصيد أو حراسة الشواطئ وغير ذلك، ويعتبر تعدد الملاحة عاملاً هاماً من عوامل ازدهار الرحلة بين الشرق والغرب، ففي خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين ورغم أن المدن الإيطالية قد استخدمت نماذج معتمدة من السفن فكان يوجد وحدة في نماذج السفن التي استخدمتها في النقل كانت البندقية تستخدم ما بين القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين نموذجين أساسيين من السفن التجارية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط أولهما: السفن المستديرة Round ship وقد بنيت لتستخدم لأطول فترة ممكنة ولنقل البضائع الثقيلة وتعتمد على الشراع. [١٠١] أما النوع الثاني فهو السفن الطويلة وقد بنيت لأغراض حربية وتسمى Galley أقدم أنواع السفن وكانت تعتبر أهم قطع الأسطول

---

(١٠٠) مزيد من التفاصيل أنظر: شاريل ديل، جمهورية البندقية، ترجمة أحمد عزت، دار المعارف القاهرة، ١٩٤٨م، ص ٢٧-٢٨؛ مصطفي حسن الكتاني، العلاقات بين جنوة والشرق الأدنى الإسلامي، الهيئة العامة، ١٩٨١ م، ص ٢٩١- ١٩٦؛ فايد حماد عاشور، العلاقة بين البندقية والشرق الإسلامي في العصر الأيوبي، دار المعارف، ١٩٨٠ م، ٤٣- ٥١ ؛ Vredan ,Travel in the Middle ages, p.88.

(101) Vardden, Travel in the Middle ages , pp.76-80 , Lane (F.G) , Ventian Shipping during the Commercial Revolution , London , 1937 , pp.219-220.

لأنها أكبر السفن وأكثرها تحملاً وهى أقل ارتفاعا وأقل اتساعاً من النوع الأول[١٠٢].

هناك نوع آخر من السفن استخدمته جنوه، وتنقسم إلى ثلاثة نماذج، الأول: السفن الشراعية وسميت**Navis** ، الثاني: السفن الشراعية المزودة بمجداف أو مجدافين وسميت باللاتينية **Sagitta**، الثالث: سمى **Tartana** طرتانه وهى أثقل من النوع الأول ومزودة بمجاديف وشراع وإستخدمها الجنوية في نقل الجنود والمؤن للصليبيين، ولكن في نهاية القرن السابع الهجري / القرن الثالث عشر الميلادي استخدمت لنقل التجارة من شرق البحر المتوسط. هذا وقد حرصت كلاً من البندقية وجنوه على المزيد من الراحة للتجار والمسافرين على سفنهما، وتوفير أماكن أكثر اتساعا للمتاجر والسلع فطوروا السفن في طولها وعرضها وأشرعتها[١٠٣].

- مواعيـد السـفر: -

أما عن مواعيد إقلاع السفن في البحر المتوسط فقد نظمتها وحددتها المدن الإيطالية بدقة، وفقاً لظروف معينة حيث أن حركة الرياح في البحر المتوسط قد حددت المواعيد الملائمة للملاحة بين المدن الإيطالية والسواحل المصرية والشامية. في البداية اقتصرت المدن الإيطالية على رحلة واحدة خلال السنة، تبدأ في الربيع بخاصة في أبريل ومايو وتعود إلى إيطاليا في بداية الخريف بخاصة في أغسطس وسبتمبر، أو أنها كانت تبحر في أغسطس و سبتمبر وتعود إلى إيطاليا في أواخر يونيو من العام التالي، بعد أن تمضى فصل الشتاء في أحد الموانئ المصرية أو الشامية، ثم أخذت منذ القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي تقوم برحلتين سنوياً في حوض البحر المتوسط.[١٠٤]،كما أن مواعيد إقلاع السفن من البندقية والجنوية كانت ترتبط بموعد وصول المراكب الهندية، المحملة بالسلع الشرقية والتوابل إلى الطور في البحر الأحمر، ثم، وصولها إلى الإسكندرية عن طريق القاهرة

([102]) William of Tyre , History of Deeds done beyond the sea , New York ,1978 vol 1 , pp. 548-549 , See Also: Verddan , op.cit , pp.81-82.

([103]) Lane , (F.) , Venice Maritime Republic , London , 1973, pp.46-48 , Bryane ,Genoes Shipping in the 12-13 centuries.Cambridge , 1930 , pp.5-9.

([104]) Lane , The Economic Meaning , p. 608.

في شهر سبتمبر، حيث تنطلق قوافل التوابل من الطور إلى القاهرة في أوائل شهر أكتوبر، وكانت مراكب البندقية في انتظارها وذلك مرتين في السنة مرة في سبتمبر ومرة أخرى في مايو[١٠٥].

- تكاليف ومصاريف الرحلة:

تكلفت الرحلة الأوربية إلى مصر والشام مبالغ ومصاريف غير محددة، وشملت تلك التكاليف أجرة السفينة ورسوم المترجم والدليل العربي، والحصول على إذن بالسفر من السلطان المملوكي عبر البلاد والممتلكات السلطانية. كذلك شملت الرسوم التي يدفعها الرحالة عند بوابات المدن المصرية والشامية، حيث وجد حراس من المماليك يجمعون الرسوم عند دخول المدينة من الأجانب الوافدين، كما أضطر الرحالة الأجانب إلى دفع رسوم أخرى، عند دخول الأماكن المقدسة والمزارات الدينية المسيحية واليهودية، بالإضافة إلى تكاليف السكن والإقامة، وكذلك أجرة تأجير البغال والحمير للنقل والسفر.

هذا وقد اختلف الرحالة في تقدير وتحديد المبالغ المدفوعة وتكاليف السفر والتنقل منذ خروجهم من بلادهم حتى العودة إلى ديارهم حيث دفع الراهب نيكولو بوجيبونسي Nicolo poggobonsi ٢٠ درهم فضية مقابل الحصول على صك الأمان والإذن بالسفر إلى صحراء سيناء للوصول إلى القاهرة [١٠٦]، أما جيوشي الإيطالي Gucci والذي كان رفيقاً للرحالة فريسكو بالدي Frescobaldi وسيجولي Sigoli عام ٧٨٦ هـ / ١٣٨٤ م فقد دفع ٦ دوكات ذهبية للحصول على ذلك الإذن بالسفر عبر الصحراء إلى بيت المقدس، كما دفع للمترجم أجرة للترجمة حوالي ٦٨

([105]) Harff, The Pilgrimage of Arnold Von Harff,p.7, Fabri,The book of the Wandering,vol 2. part 2,643, Dopp, Le Egypt du Commencement du 15 Siecle de Apres le Traite de Emanual PilotideCrete1420,Caire,1950,p.51, هايد، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى، ترجمة أحمد رضا، الهيئة العامة، ١٩٩٤، ج٣، ص ٣٢١-٣٢٢.

([106]) Nicolo, A voyage Beyond the seas, p.98.

دوكة ذهبية [١٠٧]، بينما دفع صديقه فريسكو بالدي ٩٦ دوكة ذهبية للمترجم مقابل الترجمة وتأجير الجمال المستخدمة في السفر في الصحراء[١٠٨].

كانت الوسيلة المستخدمة للنقل والسفر هي الجمال والبغال، وقد دفع بيرو طافور pero tafur ٢ دوكة ذهبية للمكاري لتأجير الدواب لحمل الأمتعة والتنقلات[١٠٩]، أما نيكولو فقد دفع ٦٠ درهم لتأجير الجمال للسفر إلى دير سانت كاترين [١١٠] ودفع براتراندو لابروكيير Bertrando de la broquiere ١٠ دوكات ذهبية مقابل تأجير الجمال للسفر في الصحراء للفرد الواحد. [١١١] وفى عام ٩١٨ هـ / ١٥١٢ م دفع جان تينو jean thenaud ٥٠ Seraphs[١١٢] لتأجير الجمال والدواب لحمل الأمتعة عن كل شخص، كما دفع ٥ دنانير أشرفية أجرة لسائق الجمال للرحلة من دير سانت كاترين إلى بيت المقدس.[١١٣]. كما دفع الرحالة أجرة السكن، حيث دفع فريسكو بالدى Frescobaldi ٤ دوكات ذهبية لصاحب المسكن الذي سكن فيه في القاهرة[١١٤]، أما تينو thenuad فقد دفع حوالي ٤ دنانير أشرفية أجرة السكن ولكنها غير شاملة الخمر إما إذا كان النزلاء من التجار فعليهم دفع ٢ أو٣ دنانير أشرفية، وإذا كانوا من الحجاج يدفعون ٥ دنانير أشرفية[١١٥].

دفع الرحالة رسوماً للدخول عند بوابات المدن المصرية والشامية، فقد أكد جميع الرحالة والمسافرين أنه في كل الأماكن والمناطق عند مداخل المدن وجد حراس وموظفون مسئولون عن تلك المناطق وحمايتها، وكان دورهم أن يقوموا بجمع

([107]) Walff , (A.) , How Many Miles to Babylon ? , Liverpool , 2003 , p.145.

([108]) Frescobaldi, A visit to the Holy Places , p52.

([١٠٩]) بيرو طافور، رحلة بيرو طافور، ص ٤٤.

([110]) Nicolo , op.cit , p.98.

([111]) Wright , Early Travellers, p.288.

([١١٢]) Seraphs: هو الدينار الأشرفي نسبة إلي السلطان الأشرف برسباي؛ انظر:

Souriano, Treaties on the holy Land , p. 35 , note (e).

([113]) Schefer , Le Voyage de Autremer de Jean , p22 ,83.

([114]) Frescobaldi , A visit to the Holy Places , p 166.

([115]) Schefer , Le Voyage de Autremer de Jean , p. 48.

وتحصيل الرسوم من المسافرين عند بوابات المدن من القاهرة إلى بيت المقدس إلى دمشق، وهذا ما أكده وأوضحه الراهب نيكولو Nicolo، فذكر أنه عندما ذهب إلى دمشق تدفع ضريبة معينة وعندما تصل إلى أريحا تدفع نصف درهم للفرد، وعند نهر الأردن تدفع درهما واحدا، وبعد ميل تصل إلى جسر النهر فتدفع درهما آخر، وعند نهر اليرموك تدفع نصف درهم، وعند أول مدينة تدفع درهما آخر، وبعد عبور الجبال والتلال تصل إلى مشارف دمشق يجب أن تدفع ٦ دراهم، وعند عبور الجسر لدخول المدينة تدفع ٣ درهم[١١٦]. وعند دخول أورشليم دفع رسوم دخول حوالي ٧٢ درهمًا وكان الرحالة أحيانًا يتعرضون للضرب والإجبار والحبس حتى يدفعوا المبلغ المقرر عليهم[١١٧]. وعند بوابة الإسكندرية لم يسمح للرحالة الأجانب بركوب الخيول أو الحمير ودخول المدينة بها فكانوا يجبرون على المشي على أقدامهم حتى باب آخر يقف عليه حارس يرفض مرورهم إلا بعد دفع مبلغ من المال وبعدها يعبرون الباب الكبير المغلق بالأقفال الحديدية[١١٨].

ذكر الرحالة اليهود أنه يوجد عشرون بوابة لجمع الضرائب والرسوم من القاهرة إلى بيت المقدس، ودفع الرحالة اليهودي إسحق بن يوسف Isaac Ben Joseph ١٣ دوكة ذهبية مقابل دخول الإسكندرية ولم يسمح الحراس للرحالة بالتحرك بدون دفع الرسوم أما الرحالة عوبديا اليهودي أيضاً فقد دفع دوكة واحدة عن نفسه أما اليهود القادمون من القاهرة إلى بيت المقدس فكانوا يدفعون ١٠ دراهم فضية عند بوابة المدينة بينما من يأتي من طريق يافا يدفع دوكة واحدة فقط[١١٩]، وقبل دخول القاهرة دفع سيجولى sigoli ٤٠ عملة إيطالية تسمى الصولدي Soldi [١٢٠] وعند

([116]) Nicolo, A voyage Beyond the seas , p. 76.

([117]) Ibid , p.8

([118]) Larrivaz ,(f.) , Le Saints Peregrinations de Bernard de Breydenpach 1483 , Le Caire , 1904 , p.66.

([119])Adler, Jewish Travellers,p163 , 242.

([120]) Frescobaldi , op.cit,p.165.

- الصولدي: عملة بيزنطية من الذهب أصدرت في عهد قنسطنطين الأول ويبلغ وزنها ٢٤ قيراطا

رشيد دفع بوم جارتن Baumgarten ٦ دراهم فضية كانت تسمى maydins[١٢١]، وهناك بعض الرحالة عندما وصلوا قلعة قطيا، والتي احتفظ فيها المماليك بحامية عسكرية لحماية المسافرين من خطر الأعراب، وكانت تعتبر محطة للسفر دفعوا ٦ قطع فضية عن كل فرد وصبي و٧ قطع عن حمولة الجمل و١٤ قطعة عن حمولة البغل، وعند العريش قلعة أخرى ومحطة أخرى للراحة دفعوا عندها ٢٠ قطعة فضية عن كل مسافر و٣٠ قطعة فضية عن حمولة الجمل، وعند قلعة رفح دفعوا ١٠ قطع فضية عن كل مسافر و ٢٠ قطعة فضية أخرى عن كل حيوان معهم[١٢٢].

وأحياناً كان الرحالة يدفع تلك المصاريف إلى القبطان حيث يحددها بنفسه شاملة التنقلات والترجمة وركوب السفينة والرسوم الأخرى وقد تصل إلى ٤٢ دوكة ذهبية يدفع الرحالة نصفها في البندقية والباقي عند الوصول إلى يافا[١٢٣]، ولكن القبطان كان يستغل الحجاج ويطالبهم بدفع مبالغ نقدية كبيرة، حيث كانوا يتفقون معه على مبلغ محدد من المال ليسافر بهم وينقلهم عبر البر والبحر إلى الأراضي المقدسة يتراوح من ٣٠ ــ ٦٠ دوكة ذهبية حسب الظروف، وأحياناً يدفع البعض أكثر أو أقل وفقاً للاتفاق مع القبطان وكان المفروض عليه أن يقوم بنقل الحجاج وتوصيلهم وإعداد

أو ٤.٥٥ جراما، أنظر: جمال فاروق، تطور استراجية الحروب الصليبية، ماجستير غير منشور، جامعة طنطا، ٢٠٠٦ م، ص ٨٤.

([121]) Baumgarten , The Travel of Martin Baumgarten, p.438.

([122]) R. B , Two Journey to Jerusalem.p.23.

-قلعة قطيا: وهي قرية بالجفار تقع بين بلبيس و العريش وكانت مركزا تجاريا هاما وبها جامع ومستشفي ووالي طبلخانة يتقاضى العشر من التجار ومباشرون ولا يمكن لأحد المرور من مصر إلي الشام وبالعكس إلا بجواز مرور من والي المدينة، انظر، ابن دقماق، صارم الدين إبراهيم بن محمد بن أيدمر، الانتصار لواسطة عقد الأمصار، ج٥، بيروت، ١٨٩٣ م، ص ٥٢ ــ ٣٥.؛ ونظرا لتعرض المسافرين من قطيا إلي العريش لهجمات الصليبيين البحرية بني سلاطين المماليك قلعة حربية ذات برج كبير علي شاطيء البحر وبه خمسة وعشرون مقاتلا، انظر أيضا: المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٤ ق٢، تحقيق محمد مصطفي زيادة، سعيد عاشور، ط ١ دار الكتب المصرية، ١٩٧٠ م، ص ٦٨٣.

([123])Davis , Hugh , Bernard Von Breydenpach and his Journey to the Holy Land , London , 1911 , p.xii.

الطعام والشراب اللازم لهم في السفينة وأيضاً دفع الرسوم المقررة عليهم عندما يذهبون إلى الأماكن المقدسة وبهذا يجب عليه دفع كافة مصاريف الحجاج في الأرض المقدسة حتى الرهبان الفقراء كانوا يدفعون من ١٥ ــ ٢٠ دوكة ذهبية[١٢٤].

وقد قام أحد الإيطاليين من ميلانو ويدعي كافالييير سانتو براسكو **Cavalier Santo Brasco**، بالاستعداد للسفر إلي الأراضي المقدسة ومصر عام ٨٨٦ هـ / ١٤٨١م وركب سفينة للحجاج في البندقية، وكان يملكها أحد نبلاء البندقية وكان معه ٢٠٠ دوكة ذهبية، فذكر أن ١٥٠ دوكة فقط ستكفي بالكاد حيث يستخدم ١٠٠ دوكة لشراء الضروريات والعودة للوطن، و٥٠ دوكة أخري للطوارئ أو في حالة المرض[١٢٥].

اعتاد الرحالة الأجانب أيضاً دفع رسوم عند دخول الأضرحة والأماكن المقدسة، سواء كانت المزارات المسيحية أو اليهودية، حيث وجد عند كل مكان موظف أو حارسا مملوكيا، لا يسمح بدخول أي أجنبي إلا بعد دفع الرسوم المقررة للدخول، ففي عام ٧٣٧ هـ / ١٣٣٦ م دفع الرحالة لودولف **ludolph** والحجاج الذين كانوا معه بنسا بندقيا واحد عن كل فرد إلى حارس كنيسة بيت لحم (كنيسة الميلاد)[١٢٦]، وعند دخول كنيسة الضريح المقدسة (كنيسة القيامة) قام شخص على باب الكنيسة بإحصاء الحجاج الوافدين وفقاً للقائمة المدونة في يافا وطلب من كل فرد أن يدفع ٧ دوكات ونصف دوكة ذهبية، ثم دفع بيروطافور مبلغاً آخرا من عملة صغيرة تساوي كل ١١ قطعة منها دوكة واحدة لدخول باقي الأماكن المقدسة الأخرى[١٢٧]. أما فيلكس فابري Felix fabri الذي زار بلاد الشام ومصر عام ٨٨٩ هـ / ١٤٨٤ م فقد دفع عند دخول نفس الكنيسة ٥ دوكات ذهبية للحارس المسلم، ولم يفتح له بوابة الكنيسة إلا بعد الدفع، ولا يعفي منها أحد حتى رهبان جبل صهيون

([124]) Souriano, Treaties on the holy Land , p.33.

([125]) Walff, How Many Miles to Babylon ? p. 56.

([126]) Ludolph , Description of the Holy land , p.95.

([١٢٧]) بيرو طافور، رحلة بيرو طافور، ص ٤٤.

باستثناء في موسم الحج فيدخلون مع الحجاج مجاناً. وعند المكان الذي صعد فيه المسيح كنيسة صغيرة أخري شبه مدمرة، يوجد عندها حارس يحصل من الحجاج رسوم تقدر بحوالي دوكة ذهبية واحدة فقط[١٢٨] في حين وضح أحد الرحالة اليهود أن المسيحيين كانوا يدفعون ١٤ دوكة ذهبية عن الشخص الواحد منذ عدة سنوات[١٢٩]. ومع نهاية العصر المملوكي دفع الرحالة عن كل شخص ٩ دوكات ذهبية لدخول الكنسية ذاتها[١٣٠]. أما عند دخول حديقة البلسم في المطرية - والتي كانت تعد مكانا مقدساً حيث أقامت فيه السيدة مريم العذراء واختبأت فيه مع طفلها يسوع – دفع فيلكس فابري ٦ دوكات ذهبية لحارس الحديقة ليسمح له بدخولها ومشاهدة أشجارها ونبات البلسم فيها[١٣١].

ومع هذا الاختلاف في تقدير المبالغ التي كانت تفرض كرسوم، إلا أنه يجب الإشارة إلى أن تلك الرسوم لم تكن ملزمة ولم تكن محددة وموحدة، فكلما زادت الأحوال الاقتصادية سوءا وزادت حاجة الدولة إلى الأموال كلما زادت الرسوم. وهنا يجب أن نقدم توضيحا لقائمة التكاليف والرسوم التي يدفعها الحجاج إلى الأراضي المقدسة من خلال ما أورده الراهب الأب فرانسيسكو سوريانو Francisco sauriano في عام ٩٠٦هـ / ١٥٠٠ م وهي كالآتي:

أولاً: الرسوم العادية للحاج في أورشليم: -

٧ دوكات + ١٧ جروسي **Grossi** ضريبة للسلطان المملوكي

١ دوكة لمترجم السلطان

٢٣.٥ جروسي لحارس باب الضريح المقدس (كنيسة القيامة)

٣ دوكات من أجل صعود الجبال الثلاث

١ جروسي لكل مكان يزوره وعددهم ٦ أماكن هي { بيت لحم – بيتان –

([128]) Fabri , The book of the Wandering , vol 2. part 2 , p.427.

([129]) Adler, Jewish Travellers,p.197.

([130]) R.B , Two Journey to Jerusalem , p.44.

([131]) Prescott , Once to Sinai , The Further Pilgrimage of Felix Fabri , London , 1957 , p. 119.

عين كارم – جبل الزيتون – ضريح العذراء – البرك }

٤ جروسي دخول الرملة

١ جروسي للمرشد

٣ جروسي لحاكم الرملة

١ جروسي لكنيسة القديس جورج.

ومجموع هذه المصاريف كانت ١٣.٥ دوكة ذهبية (وهذه قائمة المصاريف في عام ٩٠٦ هـ/١٥٠٠ م) [١٣٢]

ثانياً: رسوم أخرى لمن يأتي عن طريق البحر:-

يدفعها التجار والخدم والبحارة الذين أتوا عن طريق البحر وكانت عبارة عن، ٣.٥ دوكة ذهبية ضريبة للسلطان + ١ دوكة لكبير التراجمة، وباقي الرسوم السابقة يدفعها الحجاج كما هو مذكور سابقاً.

ثالثاً: رسوم من يأتي عن طريق البر:

٢.٥ دوكة ذهبية للسلطان + ١ دوكة لكبير التراجمة + ٢٣.٥ جروسي لحارس كنيسة القيامة + ٦ جروسي عن ستة أماكن يزورها الحاج "عند الضريح يدفع كل حاج أول مرة ٥ دوكات فقط ثم نصف دوكة بعدها وذلك عام ٩٢١ هـ / ١٥١٤ م"[١٣٣].

رابعاً: تكاليف الرحلة للحاج القادم عن طريق الإسكندرية إلى بيت المقدس:

٦ دوكات ذهبية لأمير مدينة الإسكندرية

٣ دوكات لناظر المدينة Nader (مراقب الميناء)

١ دوكة للدودار الكبير

([132]) Souriano , Treaties on the holy Land , p.34.

- الجروسي: هي أكثر العملات الإيطالية انتشارا في العصور الوسطي ثم قل استخدامها مع ظهور البنسات، انظر: جمال فاروق، المرجع السابق، ص ٨٤.

([133]) Souriano , Treaties on the holy Land , p.34.

٥ دوكات للدودار الأصغر

١ دوكة للنقباء Nachibezes

١ دوكة للوالي Luelli

١ دوكة للنقيب Nakib

١ دوكة لحارس الميناء { المسئول عن الحمام الزاجل }

١ دوكة لكاتب الميناء

١ دوكة لمترجم السلطان

١ دوكة للموظف البحري

٤ جروسي لمقدم البحرية

٥ جروسي لحارس البحري

٢ جروسي لحارس الفندق

١ دوكة للحصول على الإذن بالتصريح للسفر (صك أمان)، ثم يعطى دوكات أخرى لأشخاص آخرين عند السفر إلى القاهرة، مثل الدودار الكبير وغيره والمبلغ الإجمالي كان يصل إلى ٦ دوكات ذهبية بالإضافة إلى ٥ دوكات ذهبية للمملوك والدليل الذي يقود المسافرين إلى القاهرة و٥ دوكات أخرى لكبير التراجمة عند دخول القاهرة[١٣٤].

وأخيرًا ذكر الرحالة كازولا أنه يجب علي المرء أن يحمل معه ثلاث حقائب،

([134]) Souriano, Treaties on the holy Land, p.35.

- الدودار: أي ممسك الدواة، والوظيفة اسمها الدوادرية وصاحبها يحمل دواة السلطان أو الأمير ويقوم بإبلاغ الرسائل عنه وتقديم القصص والشكاوى إليه وتقديم التقارير الخاصة والأوراق التي يراد توقيعها والالتماسات ويقدم البريد ويقرؤه علي السلطان ويأخذ خط السلطان علي عموم المناشير، انظر: القلقشندى، شهاب الدين أحمد بن علي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩١٣ م، ج٤، ص ١٩؛ ج٥، ص ٤٦٢؛ العمري، شهاب الدين أبي العباس أحمد بن يحي، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ج٢، تحقيق دوروتيا كرافولسكي، ط١، بيروت، ١٩٨٦ م، ص ١١٨

حقيبة من الصبر، وحقيبة من النقود، وحقيبة من الإيمان[١٣٥]، أما الرحالة الإيطالي سانتو براسكو ذكر: أنه عندما يسافر الحاج يجب أن يحمل معه حقيبتين إحداهما مليئة بالصبر والأخرى بالمال وأن يحضر معه كذلك برميلين من الخمر والماء ولا ينسي الأمتعة والملابس الثقيلة الجيدة[١٣٦].

وهنا يتضح لنا تنوع وتعدد دوافع الرحالة القادمين إلى مصر والشام ولكن أهمها كان دافع الحج للحصول على الغفران والتوبة وزيارة الأماكن المقدسة التي ارتبطت بميلاد السيد المسيح عليه السلام وحياته ونشأته، ورغم وجود فكرة الحج منذ بداية المسيحية إلا أنه انتشر مع مجيء القرن الثالث الميلادي ثم تلازمت رحلات الحج مع الحملات الصليبية - التي تسربلت وراء الدين وأعلن أنها حملات دينية خالصة لتخليص الأراضي المقدسة من أيدي المسلمين – وخاصة بعد الحصول على المعلومات الجغرافية عن الشرق الإسلامي من خلال الرحالة ومؤرخي الحروب الصليبية والتي أمدت الأجانب بمعلومات تاريخية هامة واقتصادية عن الشرق إلى جانب رغبة الأجانب في تسيير خطوط ملاحية شبه منتظمة مع بلاد الشرق الإسلامى مما أدى إلى إنشاء أساطيل متطورة في العدد والحجم والإمكانيات وحددت مواعيد السفر وفقًا لمواعيد وصول السلع الشرقية،كما أن الرحلة في العصور الوسطي لم تكن سهلة؛ لأن جميع الرحالة تعرضوا للعنف والخطر الداخلي والخارجي، وسوء معاملة السلطات الحاكمة و العربان واستهزاء السكان المحليين، فكان عليهم التحلي بالصبر علي الأذى ومخاطر السفر، طمعًا في تحقيق الهدف الأسمى وهو الحج إلي الأراضي المقدسة والحصول علي الغفران والتوبة الحقيقية بعد زيارة الأماكن التي عاش فيها السيد المسيح والقديسون، ونظرا لأن الحج إلي مصر والشام كان يمثل موردا هاما من الموارد المالية والذي استفاد به عدد كبير من السكان سواء الحكام أو المحكومين نظير ما حصلوا عليه من رسوم وإتاوات وضرائب مرتفعة وغير محددة، فكان علي المسافر أن يحمل معه المال الكثير للتخلص من غضب وابتزاز الحاكم أو المترجم أو

([135]) Casola , Pilgrimage to Jerusalem , p.225.

([136]) Wolff , How Many Miles to Babylon ? , pp.56 -57.

حتى المكاري والدليل، فكان الحل الوحيد أمامه هو دفع الأموال المطلوبة لهم و خاصة في فترات التدهور الاقتصادي وعدم استقرار الأمن في البلاد، ثم عليه التمسك بالإيمان الذي يساعده علي تحمل المصاعب والأهوال في الرحلة.

ورغم ذلك تزايد عدد الرحالة الأوربيين إلي مصر والشام بدليل ما أورده أحد الباحثين حيث جمع أسماء ما يزيد عن ١٤٠٠ حاج ألماني زاروا البلاد بين سنتي ١٣٠٠م، ١٦٠٠ م[١٣٧] ويبدو أنه جمع تلك الأسماء من خلال ما سجله الرحالة أنفسهم علي جدران الكنائس والأديرة والأضرحة المقدسة حيث أعتاد الحجاج المسيحيون حفر أسمائهم وتواريخ زيارتهم علي الجدران، أما المصادر المعاصرة سواء الأجنبية أو العربية لم تذكر أعداد الرحالة، ولعل سياسة التسامح الديني التي اتبعتها السلطات الحاكمة كانت عاملا هاما في جذب الرحالة، كما كانت السلطات المملوكية تحاول توفير الأمان للمسافرين عبر الصحراء، وكذلك ازدهار حركة التجارة بين الشرق والغرب وتحسين طرق النقل البحري والبري، ساعد بشكل أكبر علي زيادة أعداد الرحلات، ونظرا لاهتمام الدول الأوربية بالتجارة مع الدولة المملوكية، فكان الرحالة والتجار يحددون مواعيدهم وفقا لوصول المتاجر الشرقية إلي الموانى المصرية والشامية مرتين في العام، كما لاحظنا تنوع أهداف الرحلة فهناك من جاء للحج، أو للتجارة، أو سفيرًا سياسيًا أو تجاريًا، أو من رغب في الاستمتاع بسحر الشرق وجمال الطبيعة والتعرف علي عادات وتقاليد الشعوب، ومنهم من جاء لغرض صليبي والتعرف علي أوضاع مسيحي الشرق ودراسة لمواطن القوة والضعف تمهيدًا لإرسال حملة صليبية لاستعادة أمجاد الصليبيين السابقة، وهكذا كان أن الشرق كان محط أنظار الجميع، ويتضح لنا أيضًا أن هؤلاء الرحالة كانوا عيونًا مبصرة ودقيقة في بعض الأحيان سجلوا مشاهدات نادرة لم نجدها في المصادر العربية أو الأجنبية المعاصرة.

([١٣٧]) نقولا زيادة، رواد الشرق، ص ١٥.